روايات احلام

لن نلتقي

لن نلتقي

أخيرًا وجدها... ووجد معها طفلته التي لم يكن يعرفها. ظلال الأمس كانت تعتم علاقتهما بسر من الماضي حدث في ليلة صيف بعيد، منذ سنتين ونصف.

لاقت كايت مورلاين الأمرّين وهي تهرب من وجه زوجها السياسي الشهير... فهل يجمعهما حبهما المشترك لابنتهما من جديد؟ وماذا ستفعل كايت بما اكتشفته عن غراهام فولوود في ذلك الصيف البعيد؟

بل، ماذا ستفعل للخلاص من دائرة الضياع الشيطانية كلما جمعها معه سقف واحد؟

١ ـ ملك يديها

استحمت كايت بسرعة، جففت نفسها في أقل من دقيقة، وارتدت قميصاً قطنياً قديماً قبل أن تخرج من الحمام متسللة الى غرفة نومها المظلمة حيث اندست تحت الاغطية، وكأنها قد نالت أخيراً ملاذاً آمناً سعت إليه لاهثة.

اصغت السمع فإذا بها تسمع تنفس ابنتها الصغيرة سندي الرتيب، لكنها لم تسمع شيئاً من غرفة الجلوس.. وتساءلت عما إذا كان غراي أنهى قراءة تقاريره، أم استلقى ينشد الراحة قفقا... وتساءلت عما إذا كان ما يزال كعادته ينام دون بجامته.. فمرّ حينئذٍ مرأى جسده في خاطرها، نحيلاً، أسمر، لكنها عادت فأبعدت صورته تلك عن تفكيرها بسرعة.

اضجعت على معدتها، تحاول اخماد خفقات قلبها السريعة والإثارة التي راحت تغزو جسدها.. للمرة الأولى منذ التقت غراي مجدداً تجد وقتاً يسمح لها بالتفكير بوضوح بشأن وضعها. لماذا تحس بالرعب والصدمة! لقد هربت اساساً لتنقذ حياة جنينها.. لكنها يومذاك كانت تعتبر العم ماتيو هو الخطر الحقيقي عليها لا غراي.. لأنها لم تعتقد يوماً أن غراي قادر على أذية أي مخلوق. بما أن العم ماتيو مات الآن فهل يعني هذا أنها تستطيع أن تتوقف أخيراً عن الهرب؟ وأن بإمكانها المخاطرة

عهد الوفاء مود

برفع دعوى حضانة سندي؟ وتحركت في فراشها قلقة، ثم جلست لتسوي الوسادة، التي بدت فجأة مزعجة ملبدة غير مريحة.

لكن لم تكن الدعوى في الواقع هي ماتقلقها بل ما ستقوله من امور متعلقة بغراي فلو أخبرت المحكمة عن أسباب اعتبارها غراي غير كفء لأذته.. وهي حتى الآن، لم تكن واثقة من رغبتها في رؤيته في السجن.

اسندت ظهرها الى قائمة السرير، تحدق في الضوء الذي يتسلل نافذاً عبر الستارة.. صحيح أنها الآن بعد ما مرَّ معها ما عادت تحب غراي لكن ذكرى لقائها الأول به مازال راسخاً في حافظتها، تلك الذكرى التي مازالت بقايا الحب فيها تؤلمها.. عادة كانت تقاوم لتدفن تلك الذكريات عند ظهورها لكنها هذه الليلة لم تستطع مقاومة الذكريات، فأغمضت عينيها تعصرهما بقوة، ثم انقلبت تضغط وجهها في الوسادة وهي تتصور تلك الحلاوة المرة التي مازالت عالقة في ذاكرتها.

التقت بغراي منذ ثلاثة سنوات ونصف في لندن، في يوم حار رطب من أيام تموز... أي بعد بضعة أشهر من اجتيازها الامتحان بنجاح في جامعة «فكتوريا» في مدينة مانشستر. وكانت قد جاءت الى لندن كعضو مبتدىء في مكتب الادعاء العام. محامية شابة مندفعة في الرابعة والعشرين، متلهفة للدفاع عن المظلومين ومصممة على النضال من أجل الحقيقة والعدالة.

نعم يومذاك كانت ساذجة.. لكن ليس كثيراً. وسرعان ما اكتشفت أن المظلومين لا يبالون عادة لا بالمساعدة ولا بمن يساعدهم.. وان العدالة ليس لها علاقة ببطء العمل الرتيب، وقد أدركت بعد بضعة أسابيع أن ما تعلمته كان مثاليات مفعمة

بمبادىء ليس لها صلة بأرض الواقع. ثم باتت بعد ذلك لا تعرف ما الذي يزعجها أكثر: السهولة التي يتمكن فيها المحامون المحترفون من إنقاذ زبائنهم المجرمين «المحترفين» من السجن، أم السهولة التي يعاقب فيها المذنبون اليافعون من أبناء الفقراء الذين لا تكترث عائلاتهم بهم، وتفشل البرامج الاجتماعية في حمايتهم من الانحراف.

بدا اليوم الذي التقت به عضو مجلس العموم البريطاني غراهام فولوود يوماً عادياً. كانت تدافع عن قضية في المحكمة، وكانت مكيفات الهواء معطلة، والحرارة في قاعة المحكمة مرتفعة جداً.

وقفت كايت حتى دخول القاضي ليستوي في مقعده. وهي تحس أنها تنضح عرقاً وأنها مرهقة أكثر من المعتاد وهذا ما أزعجها يومها لأنها لن تبدو بذلك محترفة. بعد أمر الحاجب، جلست والتفتت تنظر الى موكلها، بيرت ميرفن. كان يحدق حالماً في الفضاء، وقطرات العرق تنحدر فوق خديه الاسودين فتبللان قميصه.

بيرت ولد من أولاد الشوارع، في السابعة عشرة من عمره، القي القبض عليه في الجرم المشهود وهو يكسر قفل باب شقة عضو مجلس العموم غراهام فولوود الذي هُدِّد من قبل الشاب بمسدس محشو، وعندما فُتش الاخير في مركز الشرطة، وُجد أن جيوبه مليئة بالكوكايين والحشيشة. ووجد طبيب السجن أن بيرت، الذي لا عائلة له ولا عنوان ثابت، يعاني من سوء التغذية والسل. رغم حالته الصحية، وامتلاء ملف قضيته بالتهم، رفض أن يقابل كايت ليقدم لها تفسيراً لتصرفاته الاجرامية.

في الاشهر التي امضتها كايت في مكتب الدفاع العام، التقت بالعشرات من أمثال «بيرت ميرفن».. مع ذلك لم تستطع منع نفسها من الاحساس بأن هناك شيئاً ما يكمن تحت صمته يستحق الانقاذ...

وكما توقعت، سارت محاكمة بيرت بسرعة وسهولة.. فقد اعطى ضابط الشرطة الذي أوقفه شهادته التي فيها الادلة الدائنة. ثم سألته كايت بضعة أسئلة لم تكشف شيئاً، بعدها استدعى المدعي العام النائب غراهام فولوود للشهادة.

كان النائب أصغر مما توقعته كايت.. واكتشفت أنها كانت تحبس أنفاسها وهو يسير بثقة نحو منصة الشهود. كان في مشيته الرياضية شيء ما فبدا لها أنه لا يلبس دائماً هذه الثياب الرسمية الانيقة التي يرتديها الآن، وأنه غالباً ما يخلع عنه هذه الملابس ليرتدي ما هو أقل ارباكاً.

سرد النائب بتجهم قصته فأحست أن كل كلمة كان يقولها تزيد من ثقل الاتهام على الفتى. بعد استماعها الى شهادة النائب وقفت على مضض وهي تظنّ أن استجوابه سيزيد المحكمة قناعة بذنبه ومع ذلك وتأدية لواجبها تجاه موكلها، كانت مضطرة لالقاء ظلال من الشك على قصة الشاهد.

ـ حضرة النائب فولوود... قال ضابط الشرطة الذي اعتقل موكلي إنه لم يجد أثراً لضرر فعلي في باب شقتك. فما الذي يجعلك تثق، أن بيرت ميرفن كان يخطط لتحطيم قفل بابك ولسرقة شقتك؟

ـ كان في يده قضيب حديدي مخصص للخلع، وكان يرفعه فوق رأسه وكأنه يستعد لتحطيم شيء ما. وبما أنه كان يقف خارج بابي، وذلك القضيب كان موجهاً الى مقبض الباب، فقد

بدا لي أنه من المنطقي الافتراض بأنه يخطط لاقتحام شقتي. ولو لم يكن يرفع المقبض فوق رأسه، لاستطاع الوصول الى مسدسه بأسرع مما حصل، ولما تمكنت من تجريده من السلاح.

هز القاضي والمساعدين رؤوسهم بالموافقة على ما جاء في كلام عضو مجلس العموم.

ـ كيف تأكدت من أنه هو من هدّدك؟

بقي صوت غراهام فولوود هادئاً رضياً، لكن تعبير وجهه أصبح عطوفاً بشكل غريب وهو يرد:

ـ لقد كان أمامنا وقت طويل للتعرف على بعضنا حضرة المحامية، فأنا وبيرت اطلقنا معاً جهاز الانذار المركب على باب منزلي أثناء تنازعنا على المسدس، ثم قبعت فوقه انتظر قدوم الشرطة، وقد دام ذلك حوالي عشرين دقيقة... صدقيني.. بيرت ميرفن هو الشخص الذي هاجمني دون أدنى شك.

صحيح أن كايت لم تكن تتوقع كسب القضية، لكن هذه الشهادة وضعت الختم الاخير على مصير موكلها. وهيئة المحكمة، مثل أكثر أهل المدن كانوا قد تعبوا من العنف ومن خرق القوانين.. وهكذا رفض القاضي طلبها بارسال بيرت الى اصلاحية أحداث وحكم عليه بالسجن في سجن للراشدين.

لم يكن لديها أي شك في أن موكلها مذنب، لكنها لم تستطع إلا أن تحس بأنها خذلته.. وأن النظام كله كان يخذله طوال حياته.. والتفتت الى المتهم ورجال الشرطة يسوقونه:

ـ آسفة بيرت.. أنت تعرف عنوان المكتب.. اكتب لي إذا رأيت انني استطيع مساعدتك بشيء.

ابتسم بيرت، ونظر إليها مباشرة للمرة الاولى منذ استلامها قضيته:

ـ لا تزعجي نفسك سيدتي المحامية. هناك أماكن كثيرة في الخارج أسوأ من السجن. ويا إلهي.. لقد عشت فيها كلها.. لذا قررت أن أتعلم شيئاً من القراءة والكتابة وأنا مسجون.

فلمست ذراعه مشفقة:

ـ افعل هذا أرجوك... وحظاً سعيداً بيرت.

احست بموجة سعادة حادة غير منطقية عندما وجدت غراي فولوود ينتظرها خارج المحكمة، مبتسماً ابتسامة توقف القلوب وتنتزع اصوات الناخبين بقوة الف فولت:

ـ أنا ذاهب الى مكان مكيَّف لأشتري شراباً بارداً.. أتنضمين إلي سيدتي المحامية؟

ترددت.. كانت جاذبيته الغريزية تتصارع مع الإحباط الذي شعرت به بعد القضية.. فقال:

ـ أرجوك أن تقبلي. أود أن أشرح لك بضعة أشياء عن بيرت ميرفن.

ـ حسن جداً.. وشكراً لك.

اصطحبها الى مقهى لا يكتظ بالناس، البرودة فيه نعيم.. بعد أن وصلت المرطبات التي طلباها بسرعة مع قصعة من الفستق، أحست أن عضو البرلمان هذا من النادر أن يُترك منتظراً ومن النادر ألا يحصل على ما يريد بسرعة...

استند الى الكرسي ليرخي ربطة عنقه قليلاً ويفك آخر زر في ياقة قميصه:

ـ ماذا يدعوك أصدقاؤك يا استاذة؟

ـ كايت.

ـ حسناً يا كايت.. كنت أراقبك خلال المحاكمة وعلمت أن النتيجة أزعجتك.. وأريدك أن تفهمي سبب اصراري على التهم ضده.

ـ لقد هددك بمسدس سيد غراهام فولوود.. أليس هذا سبباً كافياً؟ صحيح أن الحكم أزعجني، لكنني لست تلك الرقيقة القلب لأعتقد أن الفقر وحده هو الداعي الى الاجرام.

قال لها بصوت منخفض هادىء:

ـ أولاً اسمي غراي... ثانياً أصريت على التهم ضد بيرت ميرفن لأنه كان حين هاجمني أكثر من فظ... ولولا قدرتي على شل حركته، لأتت العواقب وخيمة.. والله وحده يعرف من سيكون الضحية التالية.

ـ ليس من الضروري شرح هذا لي غراي.. لقد قرأت تقرير الشرطة. واعرف أن موكلي مذنب.

ـ كايت.. متى اجتزت امتحان الحقوق؟

تصلبت، وبدا عليها الاستعداد للدفاع، وقالت متوترة:

ـ منذ عدة أشهر.. اعلم أن الخبرة تنقصني في قاعة المحكمة.. ولذلك أحس أنني خذلت موكلي. فما فرصة استفادته من حياته الآن؟ عمره سبع عشرة سنة.. والمجتمع وصمه بأنه لا أمل منه.

مد غراي يده الى يدها بحركة أحست معها بارتياح غير منتظر:

ـ أظن أن أمامه فرصة.. وربما فرصة أفضل مما تظنين. فأنا مثلك كايت، محام. عملت في هذه المهنة خمس سنوات قبل أن أنتقل الى العمل السياسي. لذا احدِّثك عن خبرة اكتسبتها. إن سجوننا ليست كلها سيئة. نعم هي مكتظة فيها

عنف كبير وفيها من لا عمل له إلا التحديق في الجدران إلا أن الصغار من المحكومين يخرجون من السجن بصحة جيدة، ويتعلم منهم عشرون بالمئة علماً حسناً. وبيرت ميرفن كان يتيماً منذ الخامسة من عمره، عاش في الشوارع منذ بلغ الثانية عشرة. واحسبه لم يتناول يوماً ثلاث وجبات كاملة. لقد شاهدتِ بنفسكِ تقرير الطبيب وتعرفين أنه مصاب بالسل، وأنه مدمن مخدرات نسي متى كان صاحياً آخر مرة.. والحكم بالسجن يوفر له في الواقع أفضل فرصة حصل عليها في حياته.

ـ هذا إذا لم تسيطر عليه عصابة ما داخل السجن أولاً.

ـ تعرفين كيف يعيش أولاد الشوارع.. أتظنينه لم يعانِ من هذه الاخطار في الخارج؟

ادركت فجأة أن غراي محق.. صحيح أن الحياة في السجن كئيبة وعنيفة في بعض الاحيان، إلا أنها آمن من الشوارع، فابتسمت له:

ـ أحاولت يوماً أن تكون وكيل مبيعات؟ أظنك ستكون وكيلاً رائعاً لبيع المظلات والمعاطف الواقية من المطر لسكان الصحراء.

فارتسمت ابتسامة سريعة على فمه:

ـ ما رأيك بأن أبيعك فكرة العشاء معي؟

ردت مقطوعة الانفاس:

ـ اشتريت.. سأحب كثيراً أن اتعشى معك غراي.

وهكذا استمرا في التلاقي لثلاثة أسابيع.. تعشيا معاً في أفضل مطاعم لندن، تنزها في الريف في نهاية الاسبوع، أمضيا بعد ظهر أيام السبت يزوران معارض الفنون والمتاحف، وقضيا ساعات يتبادلان ذكريات حميمة حول طفولتهما وسنوات

الدراسة في الجامعة.

حين كانا يفترقان، كانت تحس بألم لا يطاق من الوحدة. وحين يكونان معاً كانت تحس بمزيج غريب من الترقب الانفعالي والالفة المبهجة. لم يكن مهماً إذا تعرضا في نزهتهما للمطر، أو إذا كان المتحف مكتظاً، لأنها حين تكون معه يبدو العالم كله يرتعش بالألوان المثيرة.. للمرة الأولى في حياتها تحس بأنها التقت شخصاً تود أن يكون موضع ثقتها. أخبرته عن عائلتها، وروت له قصصاً عن عمل عائلتها في المناجم أجيالاً وعن أنها الوحيدة في العائلة التي نالت درجة علمية عالية... واخبرته كيف حصلت على منحة تعليمية الى كلية الحقوق وكيف أن شقيقتها وصهرها كانا يقتران على نفسيهما لدعم تعليمها. ارادت من كل ذلك أن تظهر له صلة القربى والحب العميق بين أفراد عائلتها. وهزرت سعيدة بالحديث عن ابني شقيقتها المراهقين، وعن البنات الثلاث الصغيرات.

أما غراي، فلم يتكلم كثيراً عن عائلته، بل اسرّ إليها ببعض الاحباطات التي واجهها خلال عمله في مكتب المدعي العام، كما ذكر لها أسباب سعيه ليصبح عضواً في مجلس العموم. فالعمل في مكتب الادعاء العام ساعده على بلورة بعض الافكار عن قطع دابر الجريمة واعادة الحياة الى احياء المدينة القديمة الفقيرة. وكان مصمماً على الفوز بمركز يؤهله لوضع افكاره موضع التنفيذ. ولم يخفِ عنها أنه يضع عينه على الترشح لمقعد في مجلس اللوردات في المستقبل. فهو الآن في الرابعة والثلاثين، لا تفصله سوى سنة واحدة عن العمر الادنى المسموح به لمثل هذا المنصب، ولم تشك كايت قط في أنه سيحقق حلمه عندما يصبح في الاربعين.

إلا أنّ شيئاً واحداً كان يزعج كايت.. فلسبب ما لم تتطور علاقتهما الى تجاذب حميم.. كانت خجولة دون خبرة في مجال العلاقات الحميمة، لا تعرف كيف تظهر له رغبتها في الغزل، وهو بالتالي لم يلمسها لأنه لم يكن يفكر في أية علاقة جسدية معها. كان يقبّلها عندما يودعها كل مساء، قبلة صداقة ليس إلا، ثم يتركها تتلظى بنار الاحباط. أحياناً كان يضع ذراعه عشوائياً على كتفيها، وقد حدث مرة، وهما مستلقيان على ضفة نهر بعد تناولهما الغداء أن أخذت أصابعه تعبث بشعرها، ثم ضمها بين ذراعيه. فأحست بانجذابه إليها، وقد خالته لحظات سيقبلها، لكنه في النهاية ابتعد عنها ووقف مختلقاً عذراً كي يعودا الى السيارة.

فكرت كايت مرة في الاتصال بإحدى زميلات الدراسة، وهي فتاة جميلة ذات حنكة، غيرت ثلاثة خطاب قبل أن تبلغ الحادية والعشرين، لتطلب منها نصيحة عملية في اسلوب الاغراء. فلا بد أن هناك شيئاً ناقصاً في تصرفاتها.

يوم الأحد بعد ثلاثة أسابيع من التقائهما، كان غراي صامتاً على غير عادته وهما يزوران معرضاً فنياً للصور الفوتوغرافية، يعرض صور الفتيات اللواتي اعتدن الظهور على غلاف المجلات النسائية ووجدت كايت تلك الصور رائعة.. وسألته:

ـ إذا كنت امرأة فأسهل طريقة للظهور على غلاف مجلة سياسية ستكون بأن تكون ملكة أو تتزوج أميراً من العائلة المالكة. أظن أن هذا المعرض سيجعلني أقوم بحملة أدعو فيها الى «المساواة» بين الرجل والمرأة. أيمكن أن تهتم بنشاطي هذا في أروقة مجلس العموم، سيدي العضو البرلماني؟

لم يبتسم لمزاحها كما توقعت، بل نظر إليها متجهماً،

وقادها الى الخارج ليستأجر سيارة كانت تمر بهما..

قال لها وهما يصعدان:

ـ عليَّ العودة الى كامبريدج غداً. إذ كان يجب أن أكون هناك منذ ثلاثة أسابيع.

خفق قلبها متألماً، وابتلعت لعابها بصعوبة لتتمكن من تجنب الاختناق الذي حدث فجأة في حنجرتها. وقالت دون أن تنظر إليه وهي تجلس في المقعد الخلفي:

ـ أنا آسفة.. سأفتقدك.

ـ صحيح؟ لماذا لا ترافقيني الى شقتي الليلة يا كايت؟

وعرفت بالضبط ما يريد، فخنقها الارتباك الممتزج بالرغبة والخوف، ثم سألها:

ـ أي عنوان اعطي السائق؟

فتنهدت:

ـ عنوانك.

فرفع ذقنها بيده وطبع قبلة على جبينها:

ـ شكراً.

ما أن دخلا شقته حتى كانت كايت ترتجف من قمة رأسها حتى أخمص قدميها. تطلعت حولها في غرفة الجلوس تتمنى لو تستطيع التفكير في شيء وهي لا تعرف عن الديكور إلا القليل. ورغم جهلها بهذا فقد استطاعت أن تعرف أن الأثاث ثمين، باهظ فقالت أخيراً:

ـ إنه.. همم.. جميل. أعني ديكور الغرفة.

ـ مسرور أنا لأنها أعجبتك. والدتي صممتها لي.. أتودين شرب شيء؟

ـ بعض العصير إذا أمكن.

ـ لو عذرتني دقيقة، سأذهب الى المطبخ حيث سأجد كل شيء جاهز.

ترك الغرفة، فبدأت تسير فيها بعصبية حتى وصلت الى نافذة، تنظر الى الخارج متسائلة عما يجب أن تفعل.. فخبرتها في مجال الاغراء والغزل: صفر. ومع أن حياتها الخيالية قد اتخذت بُعداً جديداً منذ لقائها بغراي، لكن خيالها لا يوفر لها سوى صور عن مغازلات مبدئية.. لكن..

ـ هاك العصير..

قفزت مجفلة لدى سماعها صوت غراي:

ـ شك.. شكراً لك.

تمسكت بالكوب متعلقة بأول شيء شغل يديها.. إلا أنه وضع يده على خصرها بلطف يحثها على الجلوس فوق الاريكة.

بعد أن جلسا، وضع يده على ذقنها يرفع إليه رأسها.. نظر إليها بصمت لحظات بدت طويلة، ثم قال بصوت منخفض:

ـ أحبك كايت.. أنت أجمل وأصدق امرأة قابلتها في حياتي.

فردت بخجل:

ـ وأنا أحبك أيضاً.

ومدت يدها تداعب وجهه، غير عابئة بأن حبها بادٍ في ارتجاف جسدها. أمسك يدها ووضعها فوق خده، ثم أدار رأسه ليطبع قبلة سريعة عليها، فضج قلبها، وارتعش جسدها، بينما تسللت ذراعاها لتلتفا حول عنقه. فانطلقت منه آهة، نصفها تنهد والنصف الآخر ضحكة وشدها بين ذراعيه، وتمتم في

أذنها.

ـ أوه.. يا إلهي كايت.. كم أريدك.

فجأة لم تعد ذراعاه لطيفتين.. فقد سحقها فوق جسده باعثاً فيها موجات من سعادة سرت عبر شرايينها، ورغبة قوية لن تقوى عليها.

أجفلت حينما أبعدها عنه فجأة. كانت يداه تشدانها وتؤلمانها وكانت أنفاسه غير منتظمة وعيناه زائغتين.. فسألته:

ـ ما الامر؟ ثمة ما هو خطأ؟

ـ أبداً؟ كيف لك أن تسألي هذا السؤال؟ المشكلة أنها المرة الأولى التي أريد فيها فتاة طاهرة مثلك. ففي هذه المدينة لا نجد منهن الكثير.. خاصة من كن في الرابعة والعشرين.

فاحمرت وجنتاها، لكن الحنان في عينيه حماها من مشاعر الاحراج. فقالت:

ـ زميلتي في الكلية كانت تقول لي ان علي المطالبة بتسجيل اسمي على أني أكبر عذراء سناً في العالم الغربي.. لكن منحة تعليمي كانت تتطلب مني علامات مرتفعة، لا استطيع تأمينها لاجتياز الامتحان إذا كنت مشغولة بشيء آخر.

ـ ولم تفكري قط في أن تحبي وتتزوجي؟

ـ لا.. أظنني لم أفكر فيه. البلدة التي نزحت عنها بلدة مازالت تحافظ على الاخلاق والقيم. واعتقد أن الكثير من هذه القيم ترسخت فيّ.. لذلك اردت أن أحب اولاً.. ثم اتزوج الرجل الذي أحفظ نفسي له.

ـ كايت.. هناك حدّ قطعي لشهامتي.. ولقد وصلت الى حافته فإذا لم ترفضي الآن وبصراحة، فلن أتمكن من إيقاف ما قد يحدث بيننا. أتتزوجينني كايت؟

في تلك اللحظات وهي تحس بالامان في جنة ذراعيه، لم تعد تدرك إلا السعادة التي خطفت منها أنفاسها. إنها تحبه وهو يحبها.. وحبهما عظيم..

تعمقت بسمتها، وضمت نفسها الى صدره. قائلة:

ـ نعم. فلنتزوج قريباً.

فاشتدت ذراعاه حولها:

ـ سيكون زواجنا سعيداً.

ـ بل أكثر من سعيد...

* * *

عبدالوفاء سودي

عبدالوفاء سودي

٢ ـ الشك القاتل

تزوجا بعد ستة أسابيع في مسقط رأسها في بلدة صغيرة شمالي مانشستر.

والدها استأجر بذلة كحلية للمناسبة، رافضاً «حبس» نفسه، في بذلة رسمية سوداء. أما أمها، التي كانت تختال فخراً بعريس ابنتها الوسيم، فاشترت أغلى فستان وجدته في محلات البلدة..

يوم الزفاف حملت بنات شقيقتها الزهور، وتولى ابنا شقيقتها مهمة ارشاد المدعوين الى اماكن جلوسهم... وكان قد حضر الحفل اكثر من ثلاثماية شخص، يمثلون نصف سكان الضاحية التي يسكنون فيها.

والدة غراي، وصلت من فرنسا قبل يوم الزفاف، لكنها لم تقل إلا القليل وما قالته لم يكن اطراءً البتة، إلا أن كايت المحاطة بأفراد عائلتها واصدقائها، لم تلاحظ قسمات «حماتها» المتكبرة.

أول شرخ واجهها في حياتها الزوجية كان بعد عودتهما من رحلة شهر عسل مثالية في الكاريبي... فقد وصلا الى لندن، حيث استقلا سيارة غراي التي يقودها سائق يرافقه اندرو مالفود مساعد غراي السياسي والشخصي، الى «هرتش» حيث يقع

منزلهما على الشاطىء.

ـ مساء الخير سيدة فولوود.

ولم ينتظر اندرو الرد بل التفت الى غراي يقدم له حقيبة أوراق وأكمل:

ـ هذه تقريباً كل الأمور المهمة غراي. بسبب اقتراب موعد افتتاح دورة المجلس العادية، لن تتمكن من دخول مكتبك من البريد المتكدس.

فتح غراي الحقيبة، والتفت الى كايت:

ـ بالطبع أنتِ لا تمانعين يا حبيبتي. سأحاول متابعة بعض الاعمال المكتبية. ففي الاسبوعين الماضيين تأخرت كثيراً عن عملي.

ـ طبعاً لابأس بهذا.

وابتسمت له. فهي نفسها امرأة عاملة، وتفهم مطالب عمل غراي.. وليس لديها النية البتة في أن تكون زوجة مزعجة.

وضغطت على يده مردفة:

ـ تابع عملك، وسأريح نفسي لأتأمل المناظر التي سنمر بها، كما أنني قد أنام بسبب التعب.

لكن مزاجها أصبح أقل تعاطفاً عندما وصلا الى منزل غراي الواقع في مواجهة البحر فقد كان لايزال يعمل متجاهلاً وجودها.. نظرت حولها الى المرجات الواسعة حول المنزل والى البركة المزخرفة والى الباحات المسيجة بالحديد المشغول والى الممر الذي يقود مباشرة الى الشاطىء الرملي الخاص. للمرة الأولى فهمت لماذا غراي يكره ذكر عائلته فوضعها المادي المتواضع لا يقارن بوضع عائلته المحترمة. من وجهة نظرها المتواضعة، تعرف أن راتب عضو مجلس العموم ضخم،

لكنها لم تفكر قط في أن تسأله عما إذا كان يعيش على راتبه فقط... وها هي الآن وهي تنظر الى المروج المحيطة بمنزله الخاص، تدرك أنها كانت ساذجة بشكل لا يصدق. فزوجها لم يكن عضواً فعّالاً وعاملاً في مجلس العموم فحسب، بل رجلاً فائق الثراء.

لم يجد غراي مبرراً للتعليق على حجم أو روعة المنزل وبما أن اندرو مالفود ما يزال يرافقه حالياً لم ترَ كايت أن هذه اللحظة مناسبة للاستيضاح. سارت بصمت الى جانب غراي المشغول بمناقشة اندرو في نقاط قانونية محددة. ودخلا الردهة الخارجية.

كانت والدته، هيلاري فولوود تنتظر في أسفل سلم سنديانى عريض حيث كانت اصابعها المزدانة بالخواتم تستريح بأناقة على قائمة حاجز السلم المحفورة:

ـ غراي.. يا عزيزي.

وتقدمت بارستقراطية متعالية نحوهما، عندها قطع غراي حديثه مع اندرو والتفت إليها يقبلها بسرعة:

ـ مرحباً أمي.. تبدين بصحة جيدة.

ـ وأنت كذلك عزيزي.

ثم التفتت الى كايت:

ـ أما أنت فتبدين متعبة.. إن لشمس الكاريبي دائماً هذا التأثير على البشرة الشاحبة.

فوضع غراي ذراعه على كتفي كايت:

ـ أظنها الآن أكثر جمالاً فكأن شعرها الآن غيمة ذهبية، وخديها وردتان.. أما أنفها.. حسناً الماكياج يخفي أموراً لاحصر لها.

تنحنح اندرو مالفود فجمدت البسمة على اطراف شفتي هيلاري فولوود:

ـ كما تقول يا غراي.. ولحسن الحظ هناك متسع من الوقت لتستحم وتغير ملابسها قبل أن يصل ضيوفنا على العشاء.

فاجفلت كايت، ونظرت الى غراي:

ـ لدينا ضيوف على العشاء؟ لكن كيف؟ نحن لم نحضرّ شيئاً...

فردت المرأة الأخرى بلهجة قمعية:

ـ لقد قمت ومدبرة المنزل بكل الترتيبات الضرورية.. انهم فقط عشرة ضيوف.. ارجوك أن تتبعيني كايت، فلدى غراي تلال من الأعمال، ونحن النساء يجب أن نترك الرجال لأعمالهم. سأريك غرفتك.

فضمها غراي:

ـ رافقي أمي حبيبتي.. فهي ستتمتع في أن تريك المنزل. ضيوفنا لن يصلوا قبل الثامنة. وهذا يخولك النوم نصف ساعة، سأصعد لأراك حالما انتهي مع اندرو.

بعد ساعتين كانت تلف جسدها بمنشفة كبيرة وتجلس على السرير الضخم المزدوج تحسّ بالبؤس حين وصل غراي الى الغرفة يسعى إليها رأساً الى الفراش بعد أن خلع سترته وتمتم:

ـ هذا تخطيط من الطراز الاول. كم كنا سنهدر من الوقت لو كنت ترتدين ملابسك!

أمسكت بيده قبل أن تصل الى المنشفة.

ـ غراي.. أنت لم تخبرني عن هذا المنزل، وعن الخدم، وحفلة العشاء.

ـ ماذا تعنين يا حبيبتي؟ قلت لك إنني أعيش في منزل على

شاطىء البحر وإنه ملك عائلتي منذ حوالي مئة سنة.

ـ لكنك نسيت أن تقول إنه أصغر من قصر بكنغهام بقليل، والخدم في كل زاوية فيه.

فبدا عليه الحرج:

ـ تباً كايت.. إنه ليس إلا منزل عشت فيه حياتي كلها ولا أحسبني فكرت يوماً في حجمه.

ـ وحفلة العشاء؟ غراي، أنا لست معتادة على استقبال عشرة ضيوف دون علم مسبق. وأخشى أن لا أكون مضيفة رجل سياسي مفيدة. على الأقل ليس قبل أن اعتاد على نظام حياتك.

ـ يا حبيبتي.. الحفلة كانت مفاجأة لي كذلك. كنت أتمنى لو تركتنا أمي وحدنا الليلة فقط. لكنها تحب استقبال الضيوف فهي عادة تستقبلهم خمس مرات في الاسبوع. والامر ليس مهماً صدقيني.. أنا لم أتزوجك لتكوني مضيفة في منزلي.. أمي معتادة على العناية بضيوفي السياسيين منذ سنوات.

لم يرق هذا التفسير كثيراً لكايت، ولا بد أن هذا ظهر عليها، فأكمل:

ـ كايت أهم شيء هو أن تتذكري أن هذا القصر «تشارترفارم» هو بيتك الآن. بامكانك فعل ما تريدين فيه.. إذا أحببت تغيير غرفة النوم سارعي الى ذلك وإذا رغبت في تغيير ديكور المنزل فلك ذلك أيضاً.. لكن احتراماً لأمي ابحثي معها أمر التغيير أولاً.. أنت سيدة المنزل، ويجب أن تفعلي كل ما تريدينه ضرورياً لتشعري فيه بالراحة.

ـ هل عاشت أمك دائماً في هذا المنزل غراي؟

ـ لا بالطبع لا. قلت لك قبل أن نتزوج، أمي ستقضي جزءاً من كل سنة معنا.. لكن لديها شقتها الخاصة في باريس ومنزلاً

في اميركا. حيث تقضي معظم الشتاء في فلوريدا... لا تقلقي كايت.. أمامنا وقت طويل نقضيه معاً.

فيما بعد، كان عليها أن تكتشف أن حياتها ستكون نسخة أخرى عن يومهما الأول في هذا القصر، لكنها لم تعترف بذلك إلا بعد مضي أشهر على علاقتهما الزوجية.

رغم الرتابة في حياة هيلاري فولوود، لم تقرر خلال الشتاء أو تظهر نية في السفر.. بل على العكس، دعت شقيقتها جاين لقضاء اجازة طويلة معها. واحست عندها أكثر بأنها دخيلة.

جاين كانت متزوجة من محام إيطالي الأصل له مكاتب متفرقة في أنحاء البلاد يتخذ لندن مقراً له، يدعى ماتيوس كونسويلو، والذي جاء لزيارتهم في يوم أحد. ووجدته كايت ضيفاً لطيفاً: سمين مرح، حاول جهده أن تشاركهم الحديث.

ـ ناديني العم ماتيو. وناديني زوجتي بالعمة جوانيتا بدل كل هذا الهراء «السيد فلان والسيدة فلانة». أنت جزء من العائلة الآن وهذا يعني أننا نهتم بأمر بعضنا...

كانت هذه هي المرة الأولى التي يطلب منها أحدهم بأن تناديه باسمه الأول، لذا ابتسمت بأدب وسألت:

ـ العمة جوانيتا؟ لكن اسم زوجتك جاين عم ماتيو.

فتدخلت هيلاري ببرود:

ـ هذا صحيح، واسم جاين اسم انكليزي ساكسوني أصيل.. ليس مثل اسم جوانيتا.

فلمعت عينا العم ماتيو، وغمز كايت قبل أن يستدير ليرد:

ـ آه.. لكن شقيقتك تحب أن أناديها جوانيتا.. أليس كذلك حبيبتي؟

ـ أجل.. أجل.. بالطبع.. لكن لابأس إن دعتني شقيقتي

جاين.

علمت كايت عندئذٍ أن جاين امرأة قلقة تحب ارضاء الجميع.

حين اعلنت هيلاري أن العشاء جاهز قفز العم ماتيو بسرعة وقدم ذراعه لكايت قائلاً:

ـ أنا أكبر الرجال سناً هنا. ومن حقي مرافقة أجمل السيدات.

ـ اذهب من هنا غراي، وجد لك من يسليك. وستكون كايت لي هذه الأمسية.

بعد هذا الغزل المشجع لم تجد كايت صعوبة في أن تقرر بأن العم ماتيو هو الصديق القريب المفضل لها. ففيه الدفء والقلب المفتوح اللذين اعتادت عليهما في عائلتها. لذا كان من دواعي سرورها أن تجد نفسها أخيراً مع شخص غير معقد بعد صبرها أسابيع على حياة هيلاري المتزمتة الرسمية.

ذكرت رأيها هذا أمام غراي وهما في الفراش تلك الليلة:

ـ لقد تمتعت بلقاء العم ماتيو.. لماذا لا يزورنا دائماً؟

لو كانت منتبهة للاحظت التردد عليه قبل أن يرد:

ـ العم ماتيو كثير السفر.. وأمي لا تشجعه على زيارتنا.

ـ لا.. أنا واثقة من هذا.. فالجيل القديم من الايطاليين ليسوا من طرازها.

فقال بهدوء:

ـ لأمي العديد من الآراء المتحاملة المتخلفة.. لكن ليس هذا هو سبب اعتراضها على العم ماتيو.

وأخذ يمرر يده على كتفيها ويقبل ذراعها، فالتفتت الى ظهرها لتلف ذراعيها حول عنقه، وتوقف كل حديث عن العم

ماتيو.

تخلت كايت بسرعة عن محاولات السيطرة على المنزل في «تشارترفارم» إذ لم يكن لديها الرغبة في خوض معركة مع حماتها، وفي واقع الحال كانت مسرورة لأنها تحررت من الواجبات ومن الاشراف على موظفي المنزل الثلاثة الدائمين وعلى العديد من العاملين. خاصة وهي تحس أن مهارتها ومواهبها تصب في موقع آخر.

الوضع الذي يعيش فيه غراي كان سببه تأثيره ونفوذه. فهو رئيس مجلس ادارة شركة تصنيع «الستانليس ستيل».. أي الفولاذ الذي لا يصدأ... العائدة ملكيتها الى العائلة، إضافة الى مركزه السياسي المرموق. نظام مواعيده مخيف تقريباً، والمطالب التي تقع على كاهله عظيمة، لذا كان يقضي معظم أوقاته في لندن.. ولكنه عندما يعود الى بيته، كان يبدو المنزل لكايت وكأنه محاصر بالمساعدين والموظفين، التائقين الى زيادة أعباء العمل عليه.. وتعلمت تدريجياً أن تكره رؤية اندرو مالفود والحقيبة التي يحملها.

كانت دائماً تنوي العودة الى مزاولة عملها حالما تسنح لها الفرصة. وأخبرت غراي عن قرارها. وكان لقرارها ما يدعمه فقد أخبرته أنها قدمت طلباً لوظيفة في مكتب المدعي العام المحلي.

ـ هذا عظيم يا كايت.. أنت محامية موهوبة ويجب أن تضعي ما تعلمينه وتدربت عليه ومواهبك قيد التنفيذ.

فيما بعد، حين أخبرته أنها حصلت على الوظيفة، اصطحبها الى عشاء خاص احتفالاً بالمناسبة. ثم عادا فأمضيا ما تبقى من ليلهما في حب محموم مجنون.

أصبحت كايت فيما بعد متأكدة من أنها حملت جنينها تلك الليلة فانتظرت الى أن أثبت الطبيب حملها وزفت الخبر لغراي.. كان قد خرج لتوه من الحمام، متوجهاً الى غرفة الملابس ليحضر نفسه لتلبية إحدى دعوات العشاء الرسمية التي لا تنتهي والتي تجرى دائماً في «تشارترفارم».

ـ سنرزق بطفل.

جمد غراي في مكانه.. والتفت إليها ليحملها بين ذراعيه.

ـ حبيبتي.. كايت! طفل! هذا ما كنت أتمناه أكثر من أي شيء في الدنيا.. جنيني ينمو في احشائك.. هل أنت سعيدة كايت؟ ألا تتمنين لو انتظرنا مدة أطول قليلاً؟

ـ بالطبع لا.. أنا في غاية السعادة.

ـ هل تشعرين أنك على ما يرام.. كنت تجهدين نفسك بالعمل مؤخراً. أحسست بالتعب، أليس كذلك؟ من المفروض أن تحسي برغبة في التقيؤ أو أي شيء من هذا؟

فضحكت:

ـ أنا بخير.. لكنني أحس بالنعاس قليلاً، هذا كل شيء. قال الطبيب إنني قوية ولا سبب يحول دون أن أزاول عملي خلال الأشهر الستة القادمة.

ـ متى سيولد الطفل؟

ـ في أيلول.

ـ أي في أول عيد زواجنا.. أوه كايت.. ما أشدّ سعادتي! لا تتصوري كم رغبت في أن أرزق طفلاً.

وقبّل جبينها ثم قال بلهفة:

ـ أمامنا خطط عديدة.. هل فكرت في ما ستقومين به بعد ولادة الطفل؟

ـ لا.. لم تتح لي فرصة التخطيط بعد.. ما قرأته في هذا المجال يجعلني اعتقد أن علي ملازمة البيت سنة بعد ولادة الطفل.. لكنني أظنني سأعود الى مزاولة العمل في النهاية. خاصة وأن لدينا عمالاً عديدين ووضعنا يسمح لنا باستخدام مربية جيدة.. أتمانع؟

ـ لا.. طبعاً. ثم أن هذا قرارك أنت لا قراري.

واخشوشن صوته وهو يمسح شعرها بحنان:

ـ فليذهب ضيوف العشاء الليلة الى الجحيم.. سنذهب معاً الى مكان هادىء حميم.. نحن الاثنان فقط.

فهمست:

ـ بل اثنان وربع.

حين كانت كايت تتذكر فيما بعد ما مر بها، كانت تعتقد أنه الحديث الأخير المفيد الذي جرى بينهما. ففي اليوم التالي ذهبت الى عملها، فاكتشفت حقيقة العم ماتيو الساحر ذي الطبيعة السمحة.. فقد اتُهم «كاي لانك» أحد مشاهير المرابين السيئي السمعة، بجريمة قتل.. وورد اسم ماتيوس كونسويلو على أنه محامي دفاع عنه. فتمتم زميلها الذي يتولى القضية ساخطاً:

ـ كونسويلو بالطبع.. المحتال النذل. ومن قد يختار مجرماً قذراً غيره للدفاع عنه؟

سؤاله بالطبع لم يكن إلا بياناً واقعياً. لكن كايت لم تتمالك نفسها من التساؤل:

ـ وما خطب ماتيوس كونسويلو؟

فابتسم زميلها غاضباً.

ـ لا شيء كما اعتقد. هذا إذا كنت تحبين المحامين

المحتالين الذين يعملون لكل منظمة اجرامية في اوروبا كلها.

ـ حتى هؤلاء من حقهم أن يكون لهم محام.

ـ أجل لكن كونسويلو لا يمثلهم فقط فيّ المحاكم.. بل في كل صفقاتهم المشبوهة. لديه يخت كبير، وطائرة نفاثة خاصة، من المؤكد أنه لم يدفع ثمنهما من أجرته في المحاماة. حاولت مرة تجميع الوقائع لأذيته، لكنه غطى آثار جرائمه القانونية جيداً. فقرر المدعي العام أننا لن نستطيع تقديمه للمحاكمة.

كان العم ماتيو الشخص الوحيد الذي حاول جعل كايت تحس بأنها على الرحب والسعة في منزلها الجديد. وقريب غراي الوحيد الذي أحبته فعلاً... لكن بعد تلقيها هذه المعلومات، بأنه ليس ذلك الشخص الدافىء اللطيف الذي بدا لها.. أحست بالاحباط.

ما ان رجعت الى المنزل تلك الليلة حتى واجهت غراي بالمعلومات. فتلقت للمرة الأولى منه اذناً صاغية بعيداً عن قول اندرو مالفود أن غراي مشغول جداً.

لم ينكر حقيقة ما سمعته. لكنه افهمها بصراحة أنها ستكون غبية إذا فكرت في أنها قادرة على ملاحقته بتهمة الفساد.

ـ أنت ساذجة كايت. مكتب المدعي العام حاول قبلاً استجوابه وخرج صفر اليدين. فإذا كنت تتصورين نفسك ذلك الفارس الابيض فانسي الامر. وإذا كنت تتصورين نفسك قادرة على اقتحام مكتبه والخروج بأدلة تدينه فأنت في الواقع لا تقدرين عواقب المصاعب التي ستواجهك.

ـ ربما.. ولكن من الافضل أن أجرب بدلاً من التغاضي عن اعماله الاجرامية.

فوقف غراي، والتوتر يحفر خطوطاً بين أنفه وفمه:

ـ أنا لا اتغاضى عن اعمال الناس الاجرامية.. إذا كان هذا هو قصدك.

ـ دعوته للعشاء في الشهر الماضي، وهو مدعو لحفلة الاسبوع المقبل.

ـ ماتيو هو زوج خالتي.. شقيقة أمي الوحيدة. ليس هدفي من الدعوة السعي الى أن أكون في رفقته.

ـ كيف تستطيع أن تتحدث معه بأدب وأنت تعرف أنه جمع ماله من خيانة شرفه المهني؟

ـ أنت تلقين اتهاماتك جزافاً، كايت. لم يثبت على ماتيو قط الفساد... بل الواقع أن ما من جريمة أو شبهة ثبتت عليه.

ـ حسناً... ربما حان الوقت كي يحصل شخص ما على الدليل الذي سيدينه! فالمحامي من المفروض أن يدافع عن القانون ويتمسك به لا أن يجد طرقاً ذكية للتحايل عليه!

وخرجت ساخطة من مكتبه قبل أن يتمكن من الرد.

وهكذا بدأت تحقيقاتها بنشاط. وعملت مع بعض رجال الامن ممن كانوا يتحرقون شوقاً مثلها لقطع دابر الجريمة المنظمة. واخذوا يبنون القضية ببطء، دون أي اختراقات أو مداهمات علنية، لكن ما أن انتهى شهر نيسان، حتى احست كايت أن في يدها شيء محدد، لا يكفي للطلب من المدعي العام استدعاءه بتهمة محددة، لكن فيه ما يكفي لاستدعائه للتحقيق.

بالطبع، لم تبحث خططها مع غراي.. فهو قبل كل شيء يقضي معظم وقته في لندن، حتى يكاد لا يراها إلا بعد العشاء في غرفة نومها. لكن في ليلة السبت من ذلك الاسبوع، تخليا

عن وجبة العشاء ليعوضا عما فاتهما من فراق، وذهبا الى النوم باكراً. اضطجعا على الفراش يستعرضان ما مر بهما من نشاطات.. واقرت كايت له بأنها اصبحت مستعدة تقريباً للنيل من العم ماتيو وتقديمه للنيابة العامة. فاحست بجسده ينتفض فجأة قبل أن يبتعد عنها.

ـ كايت.. أرجوك اقبلي نصيحتي فهذا ليس الوقت الملائم لاقامة دعوى ضد العم ماتيو!

ـ لا أستطيع.. افهم كيف تشعر تجاه خالتك جاين.. وافهم قلقك على مركزك السياسي. لكن ارجوك، انظر الى الامور من وجهة نظري.. كيف استطيع ملاحقة المجرمين، وعمى بالمصاهرة يلوي القانون ويحتال عليه من أجل مآربه الفاسدة؟

ـ كايت، إذا كنت تثقين بي، فثقي الآن أن من الافضل للجميع أن تتخلي عن القضية.

فجلست على السرير تضم ثياب نومها بيدها:

ـ الثقة الشخصية لا علاقة لها بالامر غراي. إنها مسألة شرف المهنة.. فأنا محامية أعمل في مكتب المدعي العام. وماتيو هو مجرم مشتبه به. سأنزل الى المكتبة لأقرأ شيئاً.. فلا تنتظرني.

بعد أقل من اسبوع، استدعاها النائب العام الى مكتبه. ابتسم لها وهو يشير برأسه الى بطنها التي بدأت تنتفخ:

ـ تبدين منتفخة.. كيف هي حال القضايا؟

اعطته تفصيلات مالديها، واحست بالسعادة عندما اطرى عملها الدقيق، ثم قال وهو يسير معها الى باب المكتب:

ـ بالمناسبة... سمعت أنك تعملين خارج الدوام، في

قضية ضد ماتيوس كونسويلو.

اجفلت..

ـ أجل.. هذا صحيح. لكنني لم اقصر بالعمل في القضايا الاخرى.

فرتب كتفها بلطف:

ـ كايت، ما من احد يشكك في عملك. بل في احكامك. ومن مسؤوليتي وحدي، تقرير أي قضية نود ملاحقتها.. تخلي عن التحقيق في قضية كونسويلو.. ارجوكِ.

ـ لا استطيع.. اظننا نستطيع اتهامه بسهولة.. بعد اسبوعين تقريباً أصل الى معلومات...

ـ كايت.. هذا أمر مباشر: تخلي عن التحقيقات بشأن ماتيوس كونسويلو وإلا ستفقدين عملك.

لم تكن كايت واثقة مما كان سيحدث لو أنها ذهبت تلك الليلة الى البيت ووجدت غراي هناك. لكن لحسن الحظ كان في لندن. فاخلدت الى حمى غرفة نومها تذرع ارضها، محاولة تقرير ما ستفعل. تمنت لو أن هناك من تلجأ إليه طلباً للنصيحة. واحست للمرة الأولى فعلاً أن لاصديق لها في هذا المنزل: حماتها تكرهها، الخدم يتجاهلونها، مساعدو غراي ينظرون إليها كشخص ينافسهم على اهتمام رئيسهم. نعم هي لا تنكر أنها التقت العشرات من الناس منذ زواجها إلا أنها تعتبرهم جميعاً من معارف غراي وأصدقائه.

وصل غراي الى المنزل ظهر يوم السبت.

ـ كيف حالك حبيبتي؟ كيف كانت زيارتك للطبيب؟

ـ زدت خمسة كيلوات منذ الاسبوع الماضي. وجعلني الطبيب اقسم على عدم أكل الحلوى حتى موعد ولادتي. عندما

ألد، وتزورني في المستشفى، لا تحمل الزهور بل الشوكولا والايس كريم.

فضحك وقبّل وجنتها:

ـ اتفقنا.. كيف تجري الامور في العمل؟

بدا سؤاله عادياً، لكن احساساً غريباً، حاسة سادسة غير مفهومة، دلت كايت على أن السؤال ليس عادياً كما يبدو... وتساءلت بمرارة: ولماذا يكون السؤال عادياً؟ دون شك سؤاله يرمي الى معرفة ما إذا كان المدعي العام قد نفذ ما طلبه منه.

فردت بحذر:

ـ عظيم كل شيء على ما يرام. اطراني المدعي العام على الطريقة التي اؤدي بها عملي.

وابتعدت عنه تنظر خارج النافذة:

ـ ألا يبدو البحر هادئاً اليوم؟ متى تظننا نستطيع السباحة؟

ـ في نهاية الشهر، إذا كنت لا تمانعين التجمد من برودة المياه. وفي منتصف حزيران إذا أردت المياه دافئة.

فابتسمت، تربت على بطنها:

ـ سأنتظر منتصف حزيران.. فالصغير هنا يقول لي إنه لا يحب المياه الباردة.

فتقدم من خلفها ليلف ذراعيه على خصرها:

ـ من قال لك إنه صغير لا صغيرة؟

ـ يقول الطبيب إن ضربات قلبه بطيئة مما يعني أن الجنين صبي.

فضحك:

ـ تبدو لي هذه قصة اخترعتها الزوجات القديمات.. هيا بنا نأكل. سأرفض تناول الحلويات لابرهن أنني زوج عطوف.

أطاعت كايت أوامر المدعي العام، فاتصلت يوم الاثنين بضابط المباحث كومير، الذي يعمل معها في القضية، فقالت له إن ضغط العمل في مكتب الادعاء العام، اضطره الى إصدار مرسوم يقضي بعدم قبول أية قضية إذا لم يكن فيها اتهام مباشر بجريمة محددة.

علمت فيما بعد، أن رفضها التعاون، لم يثنِ ضابط المباحث عن متابعة التحقيق بنفسه.. وفي اوائل حزيران أتاها النقيب كومير بوثائق قاطعة تظهر أن «شركة المقاولات المتحدة» تهربت من دفع ديون الدولة التي تقارب نصف مليون جنيه استرليني لتخلفها عن اكمال شق طريق عام وبناء جسر عليه. والشركة هذه توظف ماتيوس كونسويلو محامياً لها..

عند تدقيقها في الاوراق، اكتشفت كايت أن غراهام فولوود أصبح مؤخراً أحد المساهمين الكبار فيها... وهكذا مزقتها الولاءات المتناقضة.. لكنها في النهاية نظمت ما يجب أن تفعله.. فبعد أيام من التفكير وليال من الارق، وافقت مع النقيب كومير على أن تعيد نبش التحقيق. وفي خلال أسابيع، تمكنت بمساعدة النقيب كومير من كشف أدلة كافية لاتهام عدد من المسؤولين الحكوميين بتهمة الفساد.

كشفت تحقيقات المباحث كذلك أدلة على أن الشركة المتحدة تعمل بالتنسيق والتعاون الكامل مع شخصيات قوية في لندن، وكشفت كذلك أن أحد العاملين الكبار في وزارة الاشغال، يدفع رشوات للمفتشين في وزارته، وعقد صفقات لشراء المعدات ومواد البناء باثمان باهظة تدر عليه الربح الوفير.. لكن.. اسم ذاك الرجل الهام وحده بقي خافياً عنها.

أخيراً في الخامس عشر من تموز، أبلغ أحد التحريين

العاملين بأمرة النقيب كومير، الى كايت، أن كونسويلو وأحد مفتشي وزارة الاشغال سيلتقيان بتلك الشخصية في مطعم بعيد عن الانظار في إحدى ضواحي لندن. وقالت له كايت:

ـ لا تكشف سرك.. دعني اغطي هذا اللقاء.. فإذا رآك ماتيو في المطعم، فسيلغي اللقاء قبل أن يصل المسؤول، دون شك.

اتصلت بالمنزل لتعلم المديرة أنها لن تتناول العشاء في المنزل.. وصلت الى المطعم بعد السابعة بقليل، وكانت قد اتخذت تدابيرها فوضعت شعراً مستعاراً اسود ونظارات. لكن ما من شيء قد يخفي حملها. المآمرون اختاروا مكان لقاء مثالي، فالمطعم صغير وهادىء، والاضاءة خفيفة معتمة... والطاولات مرتبة بطريقة تؤمن لكل منها انفرادها عن الاخرى.. اختارت مقعداً قريباً من الباب بانتظار وصول العم ماتيو.

في السابعة والثلث، سمعت حركة اشارت الى وصول جماعة من الناس الى المطعم لما رأتهم تعرفت الى أحد مفتشي الوزارة الذي وصفه لها النقيب كومير. واحست فجأة الجنين يخفق في بطنها رافساً حين شاهدت العم ماتيو ورجلان لم تعرفهما.

جلس الجميع الى طاولتهم. ونظر العم ماتيو الى ساعته متمتماً لمن معه كلمات... بدا واضحاً انهم بانتظار وافد جديد، على الارجح سيكون المتنفذ الرسمي.

في السابعة والنصف انفتح الباب من جديد، ووقف رجلان لا تبدو ملامحهما واضحة تحت ضوء المدخل الباهر. فقفز العم ماتيو وابتسامته تشق وجهه لاستقبال الوافدين، وكان أحدهما اندرو مالفود والآخر غراهام فولوود زوجها.. فاغمضت كايت

عينيها، وتفصد العرق البارد من جبينها بينما أخذت تقاوم احساساً مفاجئاً بالغثيان.

سمعت حفيف قماش بذلاتهم وهم يجلسون. ثم صوت غراي:

ـ نجح اندرو هذا الاسبوع في مساعيه، واظنكم ستسرون عندما أقول إن بامكانكم تمديد التزاماتكم الى لندن بالذات، واستطيع القول إنني سأتمكن من الحصول على افضل النتائج.

لم تسمع كايت ما قيل لغراي.. لكنه أجاب:

ـ أوه لا يا صديقي سايمون! مئة الف تشتري لك التزاماً هنا في هذه المنطقة النائية، لا في لندن. أنا واندرو نعتقد أن مبلغ ربع مليون مبلغاً معقولاً.. وأريد أن يوضع مباشرة في حسابي في سويسرا.

ـ أتودين مزيداً من القهوة سيدتي؟

أجفلها سؤال الساقية:

ـ آسفة.. ماذا قلت؟

ـ أتودين بعض القهوة؟ اعذريني.. هل أنت بخير؟

ـ أجل.. أجل.. شكراً لك.. أنا بخير...

لكنني سمعت ورأيت ما يؤكد أن زوجي محتال!

ـ هل لك أن تأتيني بالفاتورة.. أرجوكِ؟

لم تنتظر رجوع الساقية، بل استغلت فرصة وقوف المجموعة استعداداً للخروج فرمت بعض المال على الطاولة وتسللت الى الخارج معهم.

بعدها لم تعِ كيف أو متى وصلت الى تشارترفارم. لكنها ما أن وصلت الى غرفة نومها حتى ثابت الى رشدها ولم تشعر بنفسها إلا وهي ترمي ثيابها في حقيبتها، وتوقفت فجأة..

فالتحري المكلف ينتظر منها مخابرة وستنفتح ابواب القضية على مصراعيها إذا اختفت هكذا دون رسالة. فجلست على السرير بهدوء تطلب رقم هاتفه:

ـ مايسون؟ هذه كاترين مورلاين.. لدي أخبار سيئة... الشخصية المهمة لم تظهر الليلة.

ـ تباً! كيف ذلك ؟ كنت واثقاً كل الثقة من صحة معلوماتي.

ـ ربما، وماتيوس كونسويلو وعملاؤه بدوا هناك وكأنهم ينتظرون وصول شخص ما. ربما حدث ما أخّر ذلك الرجل.

فضحك التحري بمرارة:

ـ صحيح.. ربما دعي لاجتماع حكومي مهم. أتراهنين أنه قد يكون رئيس لجنة محاربة الجريمة المنظمة؟

ـ يبدو لي هذا محتملاً.. مايسون، كان يجب أن أقول لك قبل الآن، لكنني سأستجم بضعة أسابيع بعيداً عن العمل.. فالحمل يرهقني..

ـ سمعت هذا من زوجتي من قبل! ستبقين في المنزل لو احتجتك؟

ـ لا.. سوف أعود الى أهلي في مانشستر.. لذا عليك تقديم كل تقاريرك عبر رئيسك، وأرجوك لا تقصد المدعي العام قبل أن يكون لديك الدليل القاطع.

ـ لا تقلقي.. اعرف تماماً سياسة مكتب المدعي العام، سندع كل شيء سرياً.

ـ شكراً لك مايسون.. واحذر.

ـ أنت كذلك. أرغب في الايقاع بهؤلاء الاوغاد، صدقيني لكنني لن أنهي أيامي في المشرحة.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما اتمت حزم حقيبتها وتسللت نحو المخرج الصغير الخلفي المستخدم نادراً. وكانت في منتصف الطريق في المطبخ عندما أدركت أنها إذا لم تترك رسالة لغراي، فسيجند كل «اسكوتلنديارد» للبحث عنها، ظاناً أنها مخطوفة. فجلست على طاولة المطبخ.. وأحست فجأة برغبة في البكاء.. إنها لا تريد أن تختفي على هذا النحو، بل تريد العودة للاستلقاء في سريرها المزدوج تنتظر عودة غراي ليقول لها إنها لم تشاهده حقاً يساوم المجرمين. وتناولت دفتراً صغيراً كان قرب الهاتف، وكتبت على إحدى صفحاته:

«غراي.. أنا آسفة.. لن استطيع العيش معك بعد الآن... كايت».

ظنّت أن ما كتبته كافياً، يخبر بايضاح كل ما تود قوله. الصقت الصفحة على باب البراد، وخرجت من المنزل.

* * *

٣ ـ اذهب يا رجل

بدأت كايت عملها في السوبر ماركت في شهر تشرين الثاني، ومنذ ذلك التاريخ، كانت تمضي ساعات دون أن تفكر في غراي.. لكنها اليوم ولسبب مجهول لم تستطع ابعاده عن تفكيرها. مخاوفها كانت شديدة أحست بها غصة في حلقها اضطرتها الى ابتلاعها بصعوبة مراراً كما تطلبت منها جهداً اضافياً لمنع نفسها من الهروب عن الصندوق المالي الذي تعمل عليه.

انهت حساب قيمة مشتريات زبونة شابة ومدت يدها لتأخذ بطاقة اعتماد زبونة أخرى أكبر سناً:

ـ صباح الخير سيدة آردن، كيف حالك اليوم؟

ـ بخير شكراً.. الشمس رائعة اليوم بالنسبة لتشرين الثاني، أليس كذلك؟

ـ أجل... والافضل أن نستفيد منها.. فموظف الارصاد تكهن أن هناك موجة صقيع وثلج قادمة قبل نهاية الاسبوع القادم.

ـ أوه.. لا تبالي بما يقوله موظفو الارصاد! إنهم يتوقعون انهمار الثلج كلما اقتربت الاعياد. إنهم يرغبون في اسعاد هواة التزلج.

ضحكت كايت بعد أن ردت الرد المناسب، مع أنها لم تكن قد وعت تماماً ما قالته السيدة. فخلال السنتين الماضيتين اعتادت على اجابة الناس في وقت يكون فيه تفكيرها بعيداً كل البعد عما يحيط بها.

ازدحم المخزن بالزبائن صباح السبت كالمعتاد وكان معظمهم من النساء. راحت عينا كايت تجولان على الرجال، لكنهم بدوا لها كما يجب أن يكون المتبضعون في يوم خريفي، في بلدة بيرت الاسكوتلندية الواقعة على ضفاف نهر إلوا. كان معظمهم يرتدي الكنزات السميكة والاحذية الجلدية المرتفعة الساق والبعض يعتمر القبعات الصوفية.

ما من أحد منهم كان يرتدي بذلة رسمية ذات ثلاثة قطع وقميص رسمي أبيض وربطة عنق. وما من أحد منهم له من الطول مئة وخمسة وثمانين سنتمتراً، أو له شعر أسود كجناح غراب، أو عينان رماديتان نفّاذتان، ولم يبدُ لها أياً منهم ينوي اختطافها، ولم ترَ بينهم من يشبه اتباع العم ماتيو، أو من يشبه غراي فولوود.

لمحت أحد المشرفين على العمال يسير امامها فنادته لتطلب منه بصوت منخفض.

ـ جو! أيمكن أن تستلم الصندوق عني بضع دقائق؟

ـ طبعاً.. ما بك كايت، تبدين وكأنك رأيت شبحاً، ألست بخير؟

ـ لست بخير في هذه اللحظات، ولكنني قد استعيد نشاطي بعد قليل. إن هذه مشكلة النحيلون الشاحبين فهم يبدون كالاموات حتى عندما يشعرون بالنشاط. شكراً لك وشكراً للمساعدة.

كانت حاجتها للخروج من السوبر ماركت غامرة.. في الماضي كانت غريزتها صائبة أكثر من مرة خلال السنتين الماضيتين. وقد عودت حواسها كونها انسانة هاربة على الاستشعار بالخطر. وهي تشعر بخطر سيحدق بها اليوم، كما أحدق بها من قبل في كرونويل ووايلز وليدز، قبل أن تنتقل الى هذا المكان البعيد النائي في اسكتلندا. إنها واثقة أن غريزتها تقول لها إن الوقت قد حان لتوضيب الثياب والهرب مجدداً لتبقى آمنة.

ركضت عبر غرفة ملابس الموظفين نحو الخزائن الصغيرة وفتحت خزانتها تحس بندم حاد لتوقعها مغادرة هذه البلدة الآمنة بسرعة ولم يمضِ على وجودها فيها زمن طويل. حاولت جاهدة خلال السنتين الماضيتين أن لا تتعلق بأي مجتمع تعيش فيه، لكنها هنا احست بأن كل شيء يسير على ما يرام.

أمسكت حقيبتها وسترتها ثم اتجهت نحو الباب، فدفعت بطاقة الدخول والخروج لئلا تترك للمدير فرصة العتاب. لكن السوبر ماركت مزدحم واكثر العمال يعملون وقتاً اضافياً لذا لن يلاحظ أو يتساءل أحد عن سبب خروجها المبكر في الحادية عشرة والنصف صباحاً.

المخزن مدين لها بأجرة أربعة أيام، لذا لن تشعر بالذنب. صحيح أن مغادرتها المباغتة سوف تربكهم، إلا أن هذا على الاقل ليس سوء ائتمان.

دفعت كايت ابواب مدخل الموظفين الزجاجية، فإذا بنور الشمس يمنع عنها الرؤية، فمدت يدها الى جيبها تخرج النظارة الشمسية.. مر ظل بينها وبين الشمس. ثم تكلم صوت ناعم:

ـ مرحباً كايت. كنت انتظرك.

جمدت اصابعها ووقعت النظارة الى الارض وهي تهمس:

ـ غراي!

انحنت تلتقط نظارتها المكسورة ثم دست يديها في جيبي سترتها لئلا يرى ارتجافهما. ثم سألته بصوت أجش:

ـ ماذا تريد؟

ـ وماذا تخالينني أريد؟ أريد طفلي بالطبع!

كانت تتوقع سماع هذا القول، ومع هذا صدمها قوله فراحت تتصرف دون وعي، فارتدت على عقبيها تركض بكل قوة وخوف عبر موقف السيارات. لكنه لحق بها قبل أن تبتعد خمسين متراً. أمسك ظهر سترتها وأجبرها على الالتفات... فصاحت:

ـ لا تلمسني!

نظر إليها ببرود وقلة اكتراث، لاحظت بحيرة أن عينيه لا تحملان الكراهية. وقال ببرود:

ـ سنذهب الى سيارتي حيث نستطيع التحدث فيها بعيداً عن محاولات الهرب كلما رفضت سماع ما لا يعجبك.

ـ ليس هناك ما تقوله قد أرغب في سماعه.. وليس لدي شيء أقوله لك.

جرّها معه الى سيارة جاكوار خضراء متجاهلاً ملاحظتها.

ـ ذهبت الى شقتك قبل المجيء الى هنا، فلم أجد أحداً في المبنى، بل لم أجد أحداً من الجيران لأسأله.

ـ لا يحق لك أن تسأل جيراني عني! كيف تجرؤ على العودة بالقوة الى حياتي؟ لا يحق لك الذهاب الى حيث أسكن!

ـ لا يحق لي؟ لقد أخفيت ولدي عني سنتين.. وأنا أب لا أعرف حتى اسم طفلي، ولا جنسه. إذا كنت ذكية كايت فلا

تحدثيني عن الحقوق لأن سيطرتي على ذاتي هشة في هذه اللحظات.. وقد لا أطيق هذا النوع من الكلام.

ـ لا حقوق لك.. لا حقوق لك بشأن طفلي.

ـ لحسن الحظ، القانون يقول عكس هذا. اشكرك لاختفائك عن الانظار، لأن محاميَّ بسبب فرارك الدائم لم يجدوا عنوانك ليوصلوا إليك أوراق الاستدعاء للطلاق، وهذا يعني أنك مازلت حتى الآن زوجتي. وهذه حقيقة مرة لنا معاً... لكن لها اهميتها القانونية.

ـ لن اسمح لك برؤية طفلي.. سأستدعي الشرطة لو حاولت اجباري.

ـ أتكرهينني الى حد أن ترفضي الافصاح عن جنس الطفل؟ لا يهم سأراه قريباً بنفسي.. اصعدي الى السيارة.

ـ لا.. لن اصعد.

ـ اقترح عليك هذا لأنك ترتجفين فقط.

ـ يا لحنانك!

تلاشت صدمة لقائه الأولى.. وبما أنها كانت قد رسمت خطة تتبعها إذا التقته، قررت أن تعمد إليها.. صحيح أن ليس من السهولة خداع غراي، لكنها اكتسبت مهارات وقدرات عديدة خلال السنتين الماضيتين، منها القدرة على تمثيل أدوار مختلفة. في الماضي كان الكبرياء يمنعها من اظهار العجز. لكن للكبرياء الآن الدور الثاني بعد الأمور العملية العقلانية.. فعلمت بلمح البصر أن ما تحتاجه هو أن يحس غراي بالأمان ويتخلى عن حذره، عندها ستستخدم معرفتها التامة بالجوار لتهرب منه.

وتمكنت من اعتصار بضعة دموع من عينيها:

ـ لن أرافقك الى أي مكان.

مسحت الدموع لإتمام الدور.

ـ ولن أدخل السيارة.

فرد بهدوء:

ـ كايت لا تكوني سخيفة، شفتاك اصبحتا زرقاوين من البرد، وكل ما أريده أن تشعري بالدفء. ادخلي بالله عليك.

سحبت كتفها من تحت يده المطمئنة، وادعت الغضب.. لكن لمسته في الواقع اراحتها... وتجنبت النظر إليه وهي تصعد السيارة، قبل أن تقفل الباب خلفها. ثم قالت:

ـ يمكنك تهديدي كما تشاء.. لن أرافقك لرؤية الطفل.. لدي حق قانوني يمنعك من دخول بيتي، ولن استسلم بسهولة!

ـ أما زلت تفكرين تفكير المحامين؟ لكنك نسيت شيئاً هاماً هو أنني كنت أيضاًمحامياً قبلك بثماني سنوات.

مد يده الى جيب سترته الداخلي واخرج وثيقة مطوية بعناية.

ـ وهذا أمر رسمي من المحكمة.. استصدرته من كمبردج مرجعية قضيتنا. وهذا الامر يطلب رد طفلي الى هناك حتى جلسة الوصاية. وفي هذه الاثناء أُعطيتُ الحق بالوصول إليه دون شروط، وبامكاني استدعاء كل شرطة اسكتلندا لتنفيذ الامر.. فماذا تختارين؟

وتصاعد الغثيان في معدتها، فاضطرت الى أن تلف ذراعيها على خصرها. هذه المرة لم تضطر الى ادعاء الخوف، فهو ظاهر على محياها وعلى كل خط من خطوطه... فمعرفتها الاكيدة بأنها لن تستطيع هزمه في المحكمة هي ما جعلتها في هرب دائم ما يقارب السنتين والنصف. وإذا لم تتمكن هذه المرة من الهرب فهي ستفقد طفلها الى الابد. وإذا حاول اتباع

العم ماتيو تطبيق طرقهم، فستكون محظوظة لو نجت بحياتها. لذا لم تكن تمثل عندما التفتت إليه وعلى وجهها تعبير الغضب والتحدي:

ـ قرأت في الصحف أنك مرشح لعضوية مجلس اللوردات في الانتخابات القادمة.. فإذا حاولت كسب حق حضانة طفلنا، سأذهب الى وسائل الاعلام، واخبرهم لماذا تركتك بالضبط. عندها سترى كم سيكون حظك في النجاح السياسي!

وضع المفتاح في اداة التشغيل، وأضاءت وجهه سخرية مريرة:

ـ إنها مسألة تثير الاهتمام كايت... اخبريني، ماذا ستكشفين للعامة يا ترى؟ أكلي الثوم دائماً مع الطعام؟ أو ولعي بمشاهدة افلام الرعب على الفيديو؟ أم ستذكرين أموراً أهم... هل ستقولين للصحافة أن لدي رغبة لا تصدق.. في المعاشرة الزوجية؟ ترى ما هو تأثير هذا كله على مستقبلي السياسي؟ أتظنين أن ناخبي دائرتي الطيبين لا يوافقون على المعاشرة الزوجية يوم الاحد؟

دفعت عن رأسها الافكار التي أثارتها كلماته.. فالذكريات خطرة.. وعشرتهما الخاصة الحميمة أمر لا تريد أن تتذكره.. أبداً، قالت بهدوء:

ـ لا شيء من هذا.. لكن سأقول لهم لماذا تركتك بالضبط.

ـ هذا ما سيوفر مادة مثيرة للقراء.. ومثيرة لي أولاً. أيجب أن تنتظري حتى أقرأه بنفسي أم تتكرمي عليَّ باعلام مسبق؟ لماذا تركتني بالضبط يا كايت؟ إنه سؤال حيرني خلال السنتين الماضيتين.

ـ لا تتلاعب بي يا غراي.. فأنت تعرف تماماً لماذا تركتك. ما عدت ساذجة غبية. من الصعب أن يجد المرء وظيفة دون أوراق توصية وكنت أتحايل على القانون بصورة دائمة منذ سنتين.. والمرء يتعلم بسرعة عندما يعمل في حانة، اسرع مما يتعلمه في مكتب المدعي العام. فعيناي الآن اصبحتا مفتوحتين بشكل دائم على كل ما يجري من حولي.. في هذه الايام يبدو أنني أنام وعيناي مفتوحتان. ما عدت تلك المحامية البريئة الحديثة العهد بالتخرج التي تظن أن كل من يقسم يمين الولاء في الدولة يكون قصده خدمة الشعب.

رده أكد لها أنه يعرف عما تتكلم:

ـ العم ماتيو مات منذ سنة ونصف.

لم تستطع إبعاد السخرية عن صوتها وهي تقول:

ـ حسناً.. أرجو أن يكون قد أقيم له مأتم رائع.. أم كان عليه الاكتفاء بالمدفن التقليدي الاسمنتي المعتمد في بلاده؟

ـ قضى السرطان على حياته.. عرف مرضه بعد أن تزوجنا بقليل، ولازم الفراش ثلاثة أشهر قبل أن يموت.

ـ أنا آسفة.

ـ إذا قررت خوض المعركة الانتخابية يا كايت، فلن تحتاج الصحافة الى أي إقناع منك لنبش ما يستطيعون عن علاقتي بالعم ماتيو، لذا أخشى أن لا يكون لتهديدك هذا أي وزن بالنسبة لي.. خالتي تزوجت ماتيوس قبل ولادتي، بل هي تزوجته ضد إرادة العائلة كلها.. لكن إذا أراد الناخبون أن يجعلوني مسؤولاً عن اعمالهم فلن أقدر على فعل شيء. والآن أرشديني الى منزل المربية، أو الى المكان الذي تضعين فيه طفلي أثناء عملك.

إذا كان لخطتها أن تنجح، فهي مضطرة لتركه يقود سيارته عشر دقائق ثم تعود به من طريق أخرى الى مكان لا يبعد سوى منعطفين عن مكان عملها. وليس لها خيار سوى أن تضلله، فلا مجال لها للهرب من اسكتلندة دون سيارتها.

ـ المربية تعيش على بعد عشر دقائق من هنا. عليك الذهاب يساراً عند اشارة المرور التالية، ثم يساراً مرة أخرى.. عندها سأقول لك متى تنعطف بعدها.

تعليماتها له قادته عشرة منعطفات حول المكان المقصود. وحاولت جهدها منعه من المرور في شارع يشير ولو بإشارة واحدة الى مكانه. ثم قالت له، عندما أعادته أخيراً على بعد منعطف واحد من المخزن:

ـ انعطف الى اليمين عند اشارة المرور القادمة. شقة المربية في منتصف الشارع.. إنها في الطابق الأول في ذلك المبنى.

واتبع تعليماتها ليوقف الجاكوار أمام مدخل مبنى جميل مؤلف من ثلاثة طوابق.

وسألها:

ـ هنا؟

ـ أجل، هذا هو المبنى.

ـ فلندخل إذن.

واخرج المفاتيح من السيارة ووضعها في جيبه.. تعثرت كايت في فك حزام مقعدها وبدا لها أنه عالق فعلاً:

ـ غراي أنا آسفة.. لا أستطيع فك هذا...

ـ دعيني أفعل.. فالمعدات في سيارة مستأجرة كهذه تكون متعبة أحياناً.

مال نحوها، فمررت يدها تحت مرفقه، وكأنها تفسح له

مجالاً أوسع. ضغطت ذراعه على صدرها، فتمتم معتذراً قبل أن يضغط على الزر ليفتح القفل. اغمضت عينيها، وهي تكاد لا تلتقط أنفاسها ثم.. سمعت تكتكة قفل الحزام في اللحظة التي أطبقت اصابعها على مفتاح السيارة وحركت جسدها متعمدة تضغط صدرها على ذراعه... وتراجعت الى الوراء مدعية الاجفال والارتباك، ثم اطلقت تنهيدة عندما شاهدت اللون الاحمر يزحف الى وجهه...

ـ أنا آسف... هل آلمتك؟

ـ لا بأس.. شكراً للمساعدة.

ـ على الرحب والسعة.

حين لاحظ أنها لم تلحق به خارج السيارة نظر إليها بلطف:

ـ دعك من المماطلة كايت.. انتظرت سنتين لأرى طفلي، ولن أنتظر لحظة أخرى.

ـ أنا قادمة.

وانضمت إليه، فارتقيا معاً الدرجات الحجرية التي تقود الى باحة المبنى الداخلية... كانت تعلم أنها إذا لم تنجح في الفرار هذه المرة فلن تنجح في مرة أخرى. حين وصلا الى الباب، توقفت ثم وضعت يدها على ذراعه:

ـ غراي.. عدني ألا تزعج طفلنا.

ـ لست متوحشاً كايت، لكنني أب محبط لا يخطط لفضيحة علنية.

ـ شكراً لك.. إنه صبي صغير يخاف بسرعة.

ـ صبي! ألديّ صبي؟

ـ أجل اسميته ستانلي.. لا تزعجه أرجوك.

ـ وعدتك كايت.. إنه ابني.. كيف نفتح هذا الباب؟ هل نرن الجرس؟

وضعت يدها على خدها تتظاهر بالذهول:

ـ أوه.. غراي، تركت حقيبتي في سيارتك! وفيها المفاتيح، انتظر هنا ريثما احضرها.. هل اقفلت السيارة؟

لم تترك له مجالاً للرد، أو التفكير أو ردة الفعل، بل ركضت الى الخارج وقدماها تتحركان بسرعة، وصلت السيارة وانحنت تلتقط حقيبتها من حيث تركتها.. ثم ركضت بكل ما أوتيت من سرعة، ولم تلبث أن انعطفت الى زقاق ضيق يقع مقابل المبنى الذي تركت غراي فيه. تسللت الى داخل مبنى آخر يقود الى باحة خلفية لشركة.. ولم يكن أمامها إلا أمل وحيد هو ألا يلاحظ غراي الى أين ذهبت.

مرت بسرعة عبر ردهة المبنى الآخر لتتسلل من الجهة المقابلة في شارع مختلف تماماً. وأصبح المخزن الذي تعمل فيه الآن في مواجهتها. فسارعت الى موقف السيارات. ووصلت مندفعة باحاسيسها أكثر من أي شيء آخر. كان قلبها يخفق بسرعة حتى أن يديها راحتا ترتجفان. فتحت الباب والمفاتيح تكاد تنزلق من بين اصابعها الناضحة عرقاً وهي تدير المحرك. استجاب المحرك للمحاولة الأولى لكنها قاومت رغبتها في دفع قدمها على دواسة السرعة.. ثم بذلت جهداً لتلتقط أنفاسها.. فالرعب وقيادة السيارة نشاطان لا يتماشيان معاً.

غادرت الموقف بهدوء، ثم انخرطت في زحام البلدة المتدفق، لكن وصولها الى الطريق العامة تطلب منها وقتاً بدا لها دهراً.. وقادت السيارة ما لا يقل عن دقيقتين قبل أن تصل

الى تقاطع طرق أحدها يوصل الى «غلاسكو» والآخر الى «أدنبره». ونظرت في المرآة أمامها.. فلم ترَ أثراً لمن يلاحقها.

تنهدت بانتصار ثم قادت السيارة جنوباً، وتحسست مفاتيح سيارة غراي في جيب سترتها، فغطت الابتسامة فمها. ودت لو يقضي الساعات ملتزماً الشقة آملاً في رؤية «ابنه». إنها لن تعود الى هناك، فالشقة استأجرتها مفروشة تدفع أجرتها كل اسبوع مقدماً. وهي تعلمت بسرعة مزايا السفر الخفيف، فكان أن أبقت كل الاغراض الخاصة موضبة في حقيبتين داخل سيارتها، اضافة الى صندوق كرتوني يحتوي على مختلف انواع المعلبات.. أما مالها، الذي استطاعت ادّخاره وهو أربعماية جنيه فموجود في طيات محفظتها.

بعد نصف ساعة من الدوران الحذر، أحست واثقة بأن لا أحد في أثرها. لكنها قامت بدورة أخرى في الشوارع القريبة قبل أن تقود سيارتها باتجاه منزل المربية.. تاركة راديو السيارة مفتوحاً لتسمع آخر أخبار الطقس، الذي قيل فيه إن الثلج يهدد الجهات الشمالية لا الجنوبية من اسكتلندا.

وبدت الجبال من بعيد، لكنها لم تكد تلاحظها.. وعادت الى الانعطاف يساراً لتعود بعدها الى داخل البلدة.. الشارع وراءها فارغ، ليس فيه من يلاحقها... وها قد أزف الوقت للوصول الى منزل المربية.

لقد أزف الوقت لتأخذ سندي.

بعد أن نظرت المرأة العجوز عبر فتحة الباب، ارتسمت على وجهها ابتسامة ترحيب.

ـ مرحباً حبيبتي... أتعجب من مجيئك في هذا الوقت من النهار... ادخلي.

ـ مرحباً جيسكا.

وتبعت كايت المربية السمينة الى الداخل.. جيسكا ممثلة متقاعدة رغم ملامح وجهها الصارمة، اكتشفت كايت أنها تحب الاولاد حباً شديداً وأن لها قلباً أنعم من الزبدة.

انتظرت الى أن فتحت المرأة البوابة المنخفضة التي تمنع الاولاد من تجاوزها. فوجدت فتاة صغيرة تجلس أمام المدفأة، منكبة على ترتيب بعض العلب الهرمية الشكل أمامها.

ـ سندي، حبيبتي، جاء شخص ليراك.

أضيء وجه الفتاة عند رؤية كايت، واتسع فمها بابتسامة.. فراحت تقفز راكضة عبر الغرفة، وجدائل شعرها المتجعد تقفز. قبل أن تحضن ساقي كايت:

ـ ماما...! مرحباً ماما! أنا هنا! باي باي جيسكا. سنذهب الى البيت الآن.

فابتسمت كايت:

ـ مرحباً حلوتي! كيف حالك؟

كانت منطقياً تعرف أن لا داعي للتسرع الآن. لكن جهازها العصبي كان يعمل بطريقة بدائية وبسرعة أكثر من تفكيرها، كما أنها مقتنعة أن لكل لحظة حسابها.

ضغطت على يد ابنتها، لا تدري ألتطمئنها أم لتطمئن نفسها!

ـ اذهبي واحضري سترتك سندي، أرجوك. فنحن على

عجلة من أمرنا قليلاً.

أطاعتها سندي راكضة الى طرف الغرفة فأحضرت سترتها من مكانها على كرسي في الزاوية. وأمسكت بها تشدها الى صدرها:

ـ هذه لي... الآن سنذهب الى البيت.

ولم تنتظر رد أمها بل ركضت الى الباب. فأمسكت بها كايت:

ـ واو.. يا فتاتي الصغيرة. يجب أن أتكلم مع جيسكا قليلاً.

ـ هل خرجت باكراً من العمل حبيبتي؟ هذا غير عادي خاصة يوم السبت. صحيح؟

ـ أجل.. هذا صحيح، لكن هناك ظروف غير عادية دفعتني الى أن أطلب من المدير عطلة.

وصمتت.. فقد كرهت أن تكذب على المرأة التي لم تقدم سوى اللطف والعطف لها ولابنتها، لكنها تعلمت بالمراس أن من الضروري أحياناً خداع الطيبين. وكرامة لجيسكا بالذات، عليها أن تخفي عنها ماضيها وخطط مستقبلها.

ـ لقد تلقيت دعوة مفاجئة لقضاء اسبوع في الجبل. ستيف.. صديقي، الذي يملك كوخاً في الجبل طلب مني الذهاب معه للتزلج. صديقي مطلق وله طفلة عمرها من عمر سندي تقريباً، وستكون الرحلة تغييراً مرضياً لنا.

ـ بكل تأكيد فأنت تعملين كثيراً حبيبتي. وتستحقين فرصة امتاع نفسك.

ـ شكراً جيسكا.. والآن يجب أن أذهب لأبدأ بتوضيب ملابسي.. ستيف يريد البدء بالرحلة قبل سقوط الثلج وقبل

اقفال الطريق. هل لك أن تعطيني حقيبة سندي، أرجوكِ؟

ـ طبعاً يا عزيزتي.. ها هي.. هناك الكثير من الاغراض فيها ولا أظنك بحاجة الى المزيد للرحلة!

ـ أنت محقة جيسكا، كنزتين من الصوف وبضع سراويل، هذا يكفي.

لم تشرح كايت للمرأة سبب وجود هذه الاغراض كلها في حقيبة الفتاة، ففي المرة الأخيرة حين شعرت بوجود تحريين عند باب غرفتها، اضطرت الى ترك دب سندي الذي مازالت تبكيه الفتاة كلما تذكرته، لقد اخترقت صرخات بكائها يومذاك شغاف قلبها لذا قررت أن تحتفظ دائماً بأغراض ابنتها في حقيبة وقد ابقتها عند المربية للضرورة. وهو اجراء كان في محله..

سوّت كايت حسابها مع جيسكا وودعتها بسرعة بينما كانت سندي تتلوى بين ذراعيها. صحيح أن ما قالته الام لم تفهمه الصغيرة، إلا أنها أحست بشيء غريب في تصرفات والدتها.

ـ باي باي جيسكا.. ذاهبة الى البيت الآن.

ـ وداعاً حبيبتي. اقضي وقتاً سعيداً في الجبل.. اصنعي لي رجل ثلج. سأراكِ الأسبوع المقبل.

ـ سنفعل لك هذا جيسكا.. اعتني بنفسك.

عاجلاً أم آجلاً سيصل تحريو غراي الى المربية التي لا تعرف إلا شيئاً واحداً وهو أن جنس المولود أنثى لا ذكر. أنثى صغيرة ذات شعر بني أجعد وعينين زرقاوين دعجاوين.

علقت كايت حقيبة ابنتها على الكتف وفتحت المزلاج الذي يحرر بوابة منزل جيسكا الريفي الصدئة. عودت نفسها على عدم القلق على ما لا يمكن تغييره من الأشياء. فلو قضت وقتها في القلق خلال السنتين الماضيتين لما نجحت في الهروب حتى

الآن، ولن يمنعها شيء من النجاح مستقبلاً.

اسندت سندي نفسها على خصر والدتها التي كانت تعيد اقفال البوابة.. ثم فجأة تقدم رجل من خلف دغلة خضراء كبيرة وأمسك بخصرها قائلاً بنعومة:

ـ مرحباً كايت.. لاتصرخي ولا تحاولي الهرب، فلا أحد منا يريد افزاع الطفلة.

فاشتدت ذراع كايت حول خصر الفتاة حتى آلمتها:

ـ أوتش مامي..! لقد آلمت بطني!

ـ آسفة حبيبتي. لم أقصد إيلامك.

أحست بأن جسدها أصبح فارغاً من الداخل ثقيلاً كثقل الحديد من الاطراف... لكن جزءاً من عقلها جعلها تعي أن ما تمر به مزيج من الرعب واليأس، لكنها كانت مخدرة الاحساس من الصدمة حتى وجدت صعوبة كبرى في تحديد مشاعرها بالضبط. أحست وهي ترفع رأسهاالى غراي انه ثقيل منتفخ:

ـ كيف وجدتني؟

ـ هذا ليس المكان المناسب للشرح. أرجوكِ ادخلي الى السيارة.

امسكها بقوة من تحت ابطها، فلحقت به قدماها بإطاعة نحو سيارة روفر سوداء تقف عند المنعطف، ولاحظت بغباء أنها ليست الجاكوار الخضراء، لأن المفاتيح معها. حاولت أن تفكر، لكن ما من شيء مفهوم تكون داخل دماغها الذي أحست أن فراغاً حل محله.

وتكلمت سندي بعد طول صمت:

ـ مرحباً يا رجل.

ـ مرحباً يا صغيرة.. من الرائع أن نلتقي أخيراً. كيف

حالك؟

نظرت إليه سندي بريبة:

ـ أنا جائعة.

ـ ألم تتناولي الغداء بعد؟ الوقت متأخر. ألم تعطكِ المربية ما يكفي من طعام؟

ـ لكنني جائعة.

ـ ستتناولين شيئاً جيداً عندما نصل الى منزل أمك.. ما اسمك حبيبتي؟

ـ أنا.. أنا.

راحت تتقلب بين ذراعي أمها، ضجرة من الحديث، ولوحت بيدها:

ـ باي باي يا رجل. أنا ذاهبة الى المنزل الآن.

فتح غراي باب السيارة، فلاحظت كايت، أنه يبتسم وهو يقول لسندي:

ـ أنا قادم معكما الى المنزل. أريد فرصة للعب معك قليلاً.

لكن الفتاة لم تبدِ حماساً لاقتراحه:

ـ ماما تلعب... أنا ألعب مع ماما.

ابتلعت كايت ريقها بصعوبة وكأن فمها لا يسع لسانها.

ـ سنلعب بعد الغداء. وسنصنع رجلاً من الثلج إذا احببت.

دارت الكلمات في فراغها الداخلي فحتى الآن لم يهطل الثلج بعد في المكان. لكن غراي لم يعطها فرصة أخرى:

ـ اصعدي السيارة كايت، ولا تحاولي شيئاً. أحذرك هذه المرة سأتمسك بك جيداً حتى أحصل على تفسير. فإذا تصرفت بتعقل، سيكون ذلك خيراً لنا نحن الثلاثة.

أدار غراي السيارة، وطار بها متجاوزاً العديد من السيارات الأخرى في الشارع. عندما توقف أمام مبنى شقتها، وجدت أنها مازالت فاقدة الحس، وقال لها:

ـ اعطني حقيبتك.. فسأجد بنفسي المفتاح هذه المرة.

أعطته الحقيبة دون إحساس، ولم تتحرك من مكانها حتى قال:

ـ تعالي كايت.. لدينا ما نناقشه، وسيكون هذا أسهل في الداخل.

خرجت من السيارة تشير نحو المدخل وقطعت أربعة درجات حتى وصلت الى المدخل، لكنها تعثرت، فسارع غراي الى الامساك بخصرها.

ـ دعيني أحمل الطفلة.

ـ لا... لا يمكنك حملها!

أحست بجنون في صوتها فحاولت قدر امكانها تهدئة نفسها:

ـ آسفة.. لكنها لا تستجيب للغرباء.

ـ تباً! أنا لست غريباً! أنا والدها.. بحق الله!

ـ الوقائع البيولوجية لا تهم ابنة سنتين.. فبالنسبة لها أنت غريب.

ـ غلطة من هذه؟

ـ غلطتك! كل ما جرى غلطتك!... نشاطاتك المشبوهة جعلت من المستحيل عليّ العيش معك!

أفزع الغضب المتبادل بين والدتها والرجل سندي، فدفنت وجهها في عنق أمها، وقالت تجهش بالبكاء:

ـ الرجل.. يذهب.

فلامست كايت شعرها:

ـ هس يا حبيبتي... لابأس بالامر.. ماما معك ولن أتركك.

باب الشقة الأمامي قادهم مباشرة الى غرفة الجلوس فجلست كايت رأساً على الأريكة تفتح سحاب سترة سندي رافضة التفكير في ما قد يقوله غراي بشأن ما يحيطه من مظاهر الفقر. فالشقة مؤجرة مفروشة، وكايت تعلمت منذ فرارها مراراً أن لا فائدة من هدر المال على الفخامة الزائفة التي يمكن أن تهجرها فجأة.

ما إن تحررت سندي من السترة حتى قفزت من حجر أمها وركضت الى المطبخ. وبدا أنها منزعجة لوجود غراي، فتجاهلته:

ـ أنا جائعة ماما.

لحق بها غراي الى المطبخ:

ـ كلنا جائعون. ماذا تريدين أن تأكل؟

نظرت إليه سندي بخوف، وركضت نحو أمها تلف ذراعيها حول ساقيها. تسألها بحيرة:

ـ ماما؟

ـ لابأس عليك حبيبتي.

حملت ابنتها بين ذراعيها تداعب بطنها:

ـ الآن دعيني أفكر... ماذا أصنع لك طعاماً؟ أتودين بيضة مسلوقة؟

ـ بيضة...! ألدينا «توست»؟

ـ مع التوست؟...

تجاوزت كايت غراي كما تجاوزته ابنتها بغير مبالاة،

فأجلست سندي على كرسي مرتفع بعيداً عن النار، ووضعت قطع التوست داخل الآلة الكهربائية. كان في البراد أربع بيضات، أخرجتها جميعاً ووضعتها في وعاء فيه ماء... سرعان ما ثقب صوت غراي الحاد الصمت:

ـ هل لك أن تتفضلي فتذكرين لي اسم ابنتي؟

قفزت قطعتا الخبز الى الخارج، فأزالتهما كايت.. ووضعت مكانهما قطعتين أخريين:

ـ اسمها سندي.

ـ سندي فولوود؟

ـ لا.. بل سندي مورلاين.. سجلتها على اسم عائلتي في شهادة الميلاد.

ـ اعتقدت أن هناك أملاً ضعيفاً في أن تكوني قد وضعت اسمي في خانة الأب!

اشغلت نفسها في مسح الزبدة على التوست:

ـ آه.. لا.. إذا كان يجب أن تعرف.. لقد تركت اسم الأب مجهولاً.

ـ هكذا إذن... حسناً. لحسن الحظ هذه وثيقة من السهل تصحيحها.

فابتسمت بمرارة:

ـ أنا شخصياً أريدها أن تبقى على ما هي عليه.

ـ إذا كنت تظنين أن ابنتي ستعيش حياتها، واسم الأب في شهادة الميلاد مجهول فأنت مخطئة. أعطني تاريخ ميلادها الصحيح واسم المنطقة والمدينة، لأكلف المحامين ما أن نصل الى هريتش بتصحيح الأمور.

ـ وما الذي يجعلك واثق من أنني سأعود معك الى هناك؟

لن تستطيع ربطي الى جانبك بالسلاسل وأنت تعرف هذا.

نظر إليها ببرود:

ـ إنه خيارك بالطبع. لن أستطيع حملك وأنت مكبلة اليدين الى الطائرة. لكن لا تخطئي أبداً يا كايت، أنا مسافر من هنا في الثامنة صباح الغد وسندي ستكون معي. وأظن أن التجربة ستكون قاسية عليها لو اضطرت للسفر وحيدة.

ـ أنت سافل يا غراي.. هل قلت لك يوماً هذا؟

ـ لا أظن... لكن يبدو أن مثل هذه المشاعر، لم يكن لها مكان في زواجنا. فكما أذكر... آخر مرة كنا معاً.. أمضينا ساعتين رائعتين لكن تعليقاتك يومذاك كانت مبهمة، لكن مما فهمته ما بين الآهات والتنهدات، أنك أطلقت عليّ اسماء كثيرة، لكن ليس بينها اسم «سافل».

ـ ربما تكون ذاكرتك أضعف مما تظن.

حملت البيض لتضعه على الطاولة مع طبق التوست المدهون بالزبدة. وحملت سندي فوضعتها على كرسي قرب الطاولة، واعطتها ملعقة بلاستيكية حمراء. فشرعت الفتاة تأكل بنظافة وترتيب مدهشين. وابتسمت لأمها بسعادة، وهي تأكل قطعة التوست:

ـ هذه بيضتي!

ـ أجل إنها لك!

والتفتت الى غراي:

ـ سأضطر الى صنع سندويشات بيض مع السلطة.

ـ هذا عظيم.. والآن اخبريني، ما هو سبب هروبك من المنزل دون أن تخبريني عن مكان ذهابك؟ ألم يخطر ببالك أنني قد أقلق عليك؟

ـ أجل.. لكن لم يكن في اليد حيلة... ولم يكن لدي خيار آخر.

ـ أعتقد أنك غير مستعدة لشرح الأمر؟ أم أنك تعتبرين الرسالة التي تركتها على البراد كافية؟ لقد كانت بكل تأكيد طريقة فذة لاختصار سنة من الزواج. كنت دائماً معجباً باقتصادك في الكلام.. لكن ألاتظنين أنك اقتصدت بالكلام أكثر من اللزوم.

ـ خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة لم أكد أراك! ولو كنت تأتي الى المنزل لعرفت المشاكل التي كنت أواجهها.

ـ أية مشاكل؟ ألم أكن معك زوجاً طيباً؟

ـ في الزواج أكثر من هذا يا غراي.. كنت في الشهر السادس عندما تركتك.. كنت بحاجة الى بيت أربي فيه طفلتي وأشاركها القيم التي أؤمن بها. ما أن عرفت ما أنت.. ما العم ماتيو...

ـ تباً كايت! ماتيو لم يكن أخي من لحمي ودمي! كان زوج خالتي! وكنت أراه كرامة خالتي أربع أو خمس مرات سنوياً. فما علاقة نشاطاته الشرعية أو غير الشرعية بزواجنا.

ـ لكنه لم يكن المشكلة الوحيدة. مع أن كلانا يعرف أن نشاطاته لم تكن شرعية وقانونية البتة...

ـ حسناً جداً.. أنا أشاطرك الرأي بأن العم ماتيو كان محامياً فاسداً ينظف المال لزبائنه، كان يدافع عن زبائن يعرف أنهم مذنبون بجرائم قذرة. وكلانا يعرف أن هناك بضعة قضاة كانوا يرتشون بانتظام. وكان لديه محامون يعملون في مكتبه يجب أن يكونوا وراء قضبان السجن... لكن تباً يا كايت.. أنت لم تكوني متزوجة منه! بل مني أنا!

ـ قلت لك.. المشكلة لم تكن في العم ماتيو فقط...

ـ ماذا كان يزعجك إذن؟ ألم يخطر ببالك أنه كان من الافضل لو ناقشنا هذه المشاكل؟ حسبما أعرف أن ما بيننا كان على ما يرام. وكنت حاملاً وتعلمين جيداً أنني كنت أتوق الى أن أصبح أباً.. كنت في منتصف الدورة البرلمانية، وكنت أنت سعيدة بالترقية الجديدة التي نلتها في مكتب المدعي العام.. كان هذا في السادس عشر من تموز.. ثم في السابع عشر من تموز لم يبق من زواجنا إلا رسالة مختصرة ألصقت على باب البراد.

ـ غراي.. لا بد أنك تعرف ما حدث، فلا تتجاهل..

ـ قسماً لست أدري ما حدث! لم أكن في المنزل حتى في ذلك الاسبوع. كنت طوال الوقت في لندن. فما هو الشيء الملح الطارىء الذي جعلك تتركين المنزل دون أن تشرحي لي الامر أو دون أن تذكري المكان الذي ستلجئين إليه.

كان صوتهما لا إرادياً يرتفع، فتوقفت سندي عن تناول الطعام. ورمت نفسها على أمها تنشد الاطمئنان، ثم حدقت في غراي والكراهية تنتفض في كل حركة من جسدها... وقالت:

ـ اذهب الى بيتك يا رجل... باي باي يا رجل.

ازداد التوتر في المطبخ الصغير. لكن الغضب تلاشى عن وجه غراي وهو يركع أمام كرسي ابنته:

ـ سندي.. أنا لن أذهب.. ليس الآن. سأمضي الليل هنا في منزلك. أنا أبو...

وابتلع كلماته، ثم صمت قليلاً قبل أن يتابع:

ـ حبيبتي... أود لو أصبح صديقك. أيمكن هذا؟

فامتدت شفتها الى الامام بعدوانية:

ـ هذه أمي! هذا بيتي! الرجل سيء. الرجل يذهب من هنا. الآن!

احتضنت كايت ابنتها، غير قادرة على كبح احساسها الاناني بالرضى... زادت سعادتها عند معرفتها أن هناك شيئاً لا يمكن لثروة آل فولوود أن تشتريه. ووقف غراي:

ـ سأترككما لتناول الغداء.. لا أشعر بالجوع.. وهناك أشياء أود انهاءها. أولاً يجب أن أجد شخصاً يحضر سيارتك التي أظنها تحتوي في صندوقها على أهم ما لديك.

ـ أجل.. كل ما نحتاجه تقريباً.

ـ هناك العديد من الاسئلة أود طرحها عليك كايت، ولا يمكنك تجنب الاجابة دائماً. ولن تتمكني من الاختباء وراء سندي الى الأبد.. أتنام بعد الظهر عادة؟

ـ أجل.. عادة.

ـ عظيم.. سنتحدث حين تنام.. هل الهاتف موجود في غرفة الجلوس؟

ـ أجل.

لفت الصغيرة ذراعيها على عنق أمها ونظرت الى غراي متحدية من فوق كتف أمها.

ـ باي باي يا رجل.

كان في ابتسامة غراي أكثر من لمسة قلق وتجهم، وقال لكايت:

ـ يبدو أنك وسندي تتشاطران كرهي.. لكن بما أنني سئمت من دعوتي «يا رجل» اقترح عليك أن تعملي على تعليم ابنتي أن تناديني «دادي».

لكن سندي لم تعط أمها فرصة الرد.. بل حدقت في غراي وقالت بصوت متكدر:

ـ اذهب من هنا يا رجل.. اذهب الى بيتك الآن!

* * *

عبدالوفاء سودة

٤ ـ بداية النهاية

وضعت كايت سندي في فراشها لتأخذ قيلولتها وهي تحس بثقل وجود غراي على باب غرفة النوم. كانت سندي عادة تتقلب في فراشها تطلب سماع قصص وأغانٍ قبل أن تغفو، أما اليوم، فقد اندست تحت الاغطية عابسة، تتمسك ببطانية طفولتها التي تكاد تهترىء. وتلف يدها الاخرى حول عنق أمها تعانقها عناقاً شديداً، تهمس وهي ترمق غراي بطرف عينها:

ـ ماما تبقى...

ـ طبعاً سأبقى.. انظري.. الدب ينام.

نظرت الطفلة الى لعبتها مفكرة.. هذه اللعبة كانت بديلاً عن الدب الذي تركته أمها وراءها اثر هروبها من ليڤربول، لكنها لم تقبلها حتى الآن بديلاً.

ـ الدب لم ينم بعد.

ـ سأربت عليه حتى ينام. هذا سيساعده على النوم.. يعجبه أن أربت عليه.

ـ الدب لا يحب الرجل.

ـ ألا يحبه.. لكن ال.. الرجل يحب الدب. ويريده أن ينام كي يكبر ويصبح قوياً.

ـ الدب قوي وكبير الآن.

ـ طبعاً لكنه سيكون أقوى بعد النوم.

مدت كايت يدها الى ظهر سندي تربته برتابة بينما يدها الاخرى تربت صدر الدب. فتمتمت الطفلة ناعسة:

ـ ماما تبقى.

ـ سأبقى حبيبتي.. لا تقلقي.. سأبقى ما دمت نائمة.

استرخت تدريجياً قبضة الصغيرة عن غطائها، ثم نظرت نظرة غضب أخيرة الى غراي قبل أن تمد يدها الى الدب، حيث انهدت بارتياح، وغطت بالنوم.

قال غراي ورقة غريبة في صوته:

ـ إنها جميلة جداً... لها لون عينيك.

ـ إنها تشبه أمك أكثر من أي شخص آخر.

الله يعلم، أن حماتها لن تسرّ كثيراً بهذا الشبه.. هيلاري فولوود لم تخفِ قط كرهها لزواج ابنها من ابنة عامل منجم فحم متقاعد ولقد تلقت خبر حملها ببرود مخيف. فمن وجهة نظرها... دم عائلة فولوود أصبح نقياً خالياً من الشوائب عبر قرون من اختيار السلالات الرفيعة والثراء الموروث. فهي وابنها يعدان في طليعة أثرياء انكلترا بل في طليعة المرقومي المكانة السياسية والتجارية... من وجهة نظر السيدة فولوود، أن دم كايت المنتمية الى الطبقة الكادحة، غير مطهر بالمال، وليس له مكان اطلاقاً في شجرة عائلة فولوود الارستقراطية.

لم تجهد كايت نفسها في التحقق من لحاقه بها الى غرفة الجلوس. وهذا يؤكد لها أن عليها الغاء أي تفكير في الهرب منه وأن عليها السيطرة على ذاتها وعلى الوضع الذي وجدت نفسها فيه.

رن جرس الباب حين كانت توشك على الدخول الى

عبدالوفاء سودة

المطبخ لصنع الشاي. فاتجهت بسرعة لتفتح.

ـ من الطارق؟

ـ أنا اندرو مالفود، سيدة فولوود، طلب مني غراي أن آخذ مفاتيح سيارتك لأحضرها من موقعها قرب منزل المربية.

ـ اندرو مالفود... بالطبع! وكيف لي أن أنساك؟

فتحت الباب مكرهة، فانحنى اندرو لها بأدب.

ـ مرحباً سيدة فولوود... تسرني رؤيتك من جديد.

راقبته وهو يدخل الشقة ممسداً شعره ليغطي بداية الصلع في مقدمة رأسه:

ـ مضى زمن طويل سيدة فولوود.. كيف كانت أحوالك؟

ـ ممتازة ومسالمة سيد مالفود. وماذا عنك؟

برز غراي من غرفة النوم وتوجهت كايت لتجلس فوق الاريكة البالية القماش، حذرة من النظر الى أي منهما... إنها تعلم جيداً أنه ما أن يحصل اندرو على مفاتيح سيارتها، حتى تفقد كل أمل عندئذٍ في الخلاص. وأطالت التفكير، قبل أن تقبل الامر الواقع وهو أنها إذا ارادت البقاء مع طفلتها، فعليها السفر مع غراي صباحاً الى «تشارترفارم» وقالت ببرود:

ـ هاك المفاتيح.. أتعرف أين هي؟

ـ أجل.. شكراً لك سيدة فولوود.

ـ عظيم جداً.. أرى أنك أضفت الى مواهبك موهبة التحري الهادىء.

فتدخل غراي:

ـ اندرو لحق بنا هذا الصباح بناء على أوامري.. ولهذا استطعت اللحاق بك بسرعة عندما هربت.

ـ طبعاً.. كان يجب أن أعرف أنك لا يمكن أن تجيء الى

اسكتلندا وحدك أبداً. في الواقع، أنت لم تتحرك الى أي مكان من قبل، دون تابعك المخلص.

لمعت عينا غراي غضباً، لكن اندرو تدخل.

ـ سأذهب لأحضر السيارة فوراً سيدة فولوود. وإذا لم يكن لديك مانع، سأضع الحقائب في سيارة الجاكوار... حينها سيكون كل شيء جاهزاً للتوجه الى غلاسكو في الغد. ولن أزعجكما بعدها.

ـ هذا رائع.. لا تدعني أؤخرك سيد مالفود.

لم ينتظر غراي سماع باب الشقة يقفل حتى التفت إليها:

ـ أكون شاكراً لك لو وجهتِ اهاناتك لي، لا لاشخاص لا يستطيعون الدفاع عن انفسهم... اندرو مالفود ليس تابعاً لي. إنه بكل بساطة موظف كفء مخلص.

فابتسمت ابتسامة زائفة:

ـ اعلم... وهذا حال كل تابع.

فتنفس بنفاذ صبر:

ـ اندرو مالفود كان يساعدني في تقفي آثار ابنتي، التي اختطفت من حضانتي بطريقة غير قانونية، على يدك أنت. ولم يفعل أي شيء غير اخلاقي، أو غير قانوني.

وفكرت في نفسها: ربما لم يفعل شيئاً هذه المرة، لكنني رأيته معك في تلك الليلة المشؤومة من شهر تموز. لقد رأيته بنفسي!

وقالت له:

ـ كنت أفكر في اعداد الشاي.. أتود كوباً؟

ـ فكرة جيدة.

ـ تعال الى المطبخ ريثما أعدّه.

جلس الى طاولة المطبخ الصغيرة يراقبها تضع الماء على النار ليغلي.

ـ آسفة.. ليس لدي ابريق شاي.. كان لدي واحد تركته اثناء هروبي في احدى المرات.

ـ لابأس في هذا.. تعلمين أنني لا أتذمر بشأن الشاي أو القهوة.

تذكرت أن اخلاصه في العمل وطاقته المتقدة، كانتا إحدى الخصال الحبيبة الى قلبها... توترت وهي تتذكر فجأة علاقتهما الحميمة.

ـ اتصلت بوارن منذ قليل، فهو يود سماع اخبارك كذلك.

اندلق الماء المغلي على رف المغسلة لدى سماعها اسم أخيها الاكبر فسارع غراي الى جانبها:

ـ هل احرقت نفسك؟

ـ لا.. بأس عليّ.

ـ دعيني أرى.

أمسك بيديها دون انتظار ردها وأخذ يتفحصها.. لمسته لم يكن لها مغزى، مع ذلك أحست برجفة خفيفة تمتد من اصابعه الى يديها. وترك يديها:

ـ لا يبدو أن شيئاً اصابك.

والتقط منديلاً ورقياً ليمسح الماء المسكوب. فلفت ذراعيها حول خصرها بشدة وسألته:

ـ كيف.. كيف حال وارن.. والعائلة؟

ـ إنهم بخير.. أصبحوا أفضل حالاً بعدما عرفوا أنك حية وسالمة وأم لطفلة رائعة. الستتان الماضيتان كانتا شديدتين على عائلتك.

كبحت كايت فوراً احساسها بالذنب. فهي لم تبلغ عائلتها أي خبر عنها أو عن سندي، لئلا تتسرب أية معلومة الى غراي. قالت مدافعة عن نفسها:

ـ لكنني اتصلت به بعد ولادة سندي مباشرة.

ـ اعلم.. وقلت له إنك انجبت طفلاً وانكما بخير.. وهذا هو الاتصال الذي اراح بال عائلتك بعض الشيء. لأنك لم تقولي لهم إذا كان المولود صبياً أم بنتاً. ولم تقولي من أين تتصلين بهم. وخلال ستتين، لم تتصلي بوالدك أو بوالدتك إلا مرة واحدة في عيد الميلاد، لكنك حتى في ذلك اليوم، اقفلت الخط عندما سألاك من أين تتصلين، فماذا فعلا بحق الله ليستحقا منك هذا كله؟

فصاحت به:

ـ لا شيء! لكنني لم استطع اخبارهما بشيء لأنني واثقة من أنهما كانا سيعلمانك.. وأنت تعرف أن عائلتي تؤمن أن مكان المرأة هو بيت زوجها فقط.

ـ أتعلمين أن العديد من الناس يملكون الفكرة ذاتها. وأنا ممن يؤمن أن مكان المرأة مع زوجها. على الاقل حتى تعطيه فرصة لحل مشاكلهما.

وضعت كايت كيسين من الشاي في الفنجانين أمامهما وتركتهما أكثر من اللازم حتى أصبح لون الماء بنياً. واعطته أحدهما:

ـ تفضل.. أظنك مازلت تشربه دون سكر أو حليب.

ـ أجل... والعادات القديمة جيدة. حسناً.. بما أنك لا تودين الحديث عن زواجنا، فلنتحدث عن طفلتنا. أنا والد سندي يا كايت، ولي الحق ببعض المعلومات الاساسية. أين

ولدت؟ وما هو تاريخ ميلادها؟ كم وزنها؟ ومتى بدأت تمشي؟

ابتلعت كايت ريقها بصعوبة:

- ولدت في الثالث من أيلول في ليڤربول، في مستشفى المدينة. تزن ثلاثة كيلوات ونصف، وبدأت المشي بعد يومين من ميلادها الأول.

- أهناك سبب محدد حداك الى اختيار ليڤربول مكاناً للولادة؟

- لا أبداً. ما اخترتها إلا لأنها مدينة كبيرة.

دفع فنجانه بعيداً ثم نهض وراح يدلّك عضلات مؤخرة عنقه. الحركة التي تعرفها خير معرفة تشير الى تعبه. أغمضت عينيها تمنع الألم عن قلبها من رؤية هذه الحركة الحميمة منه.

- لم أفكر في البحث عنك في المدن الكبيرة، ظننتك في البدء عدت الى بلدتك، لكنني لم أجد لك أثراً. ثم فتشت في مانشستر حيث درست في جامعة ڤيكتوريا، ثم جربت البحث في لندن، معتقداً أنك عدت للعمل في مكتب الدفاع العام.. استلزمني الامر ستة أشهر حتى أعرف أنك تتعمدين تجنب الاماكن المعروفة والأماكن التي عشت فيها من قبل، وأنك لن تعودي الى المحاماة.

فكرت كايت بالوظائف التي شغلتها، العمل على صندوق محطة وقود، ساقية في حانة، مقدمة مشروب في مقهى وفي أماكن مشكوك في نظافتها. بل لقد عملت في كل ما توفر لها من عمل خلال ساعات الليل أثناء نوم سندي، وخلال الأوقات التي يسهل فيها إيجاد مربية. وفي الأماكن التي لا يطلب منها التعمق بسجل توظيفها أو بشهادة العمل الزائفة التي كانت تقدمها.

ابتسمت متوترة وأجابت:

- لا.. لم أزاول مهنة المحاماة.

حملت الفنجانين الى المغسلة، وابقت ظهرها نحوه تريد أن تسأله سؤالاً هاماً.. تريد أن تعرف قبل أن تحاول الهرب مجدداً كيف استطاع معرفة مكانها.

- لكن.. كيف وجدتني في النهاية؟

أحست بتردده قبل أن يجيب. فإن له عقلاً ذكياً، وما من شك أنه فهم سبب هذا السؤال، لكن ثقته بنفسه دفعته للرد:

- لاحقنا رقم الضمان الاجتماعي، فوكالات جباية الضرائب طورت نظاماً جديداً بالكومبيتر لملاحقة كل موظف جديد.. وقد أُفدتُ علماً قبل يوم أمس أنك تعملين في سوبر ماركت تقع على طريق «بيرت» العام منذ آب الماضي. فاستخدمت تحرياً لملاحقتك وطرت مع اندرو مالفود الى هنا يوم الجمعة.

إذن، لقد اقتفى بسهولة أثرها في النهاية.. دون أن يكلفه الأمر أكثر من بضع مكالمات هاتفية قضت على عهد الفرار المذكور الذي دام سنتين وثلاثة أشهر. كانت تعلم أنها تخاطر عندما وضعت رقم الضمان الاصلي على طلبها، لكنها كانت قد سئمت جشع أرباب العمل ورواتبهم الزهيدة لقاء عدم طرحهم الأسئلة الضرورية. واكمل غراي:

- كنت محظوظة في اخفاء سندي عني. لقد استخدمت مخبرين في انحاء انكلترا كلها لتقفي أثركما، وكادوا يصلون إليك مرة.

- أعلم.. لكن لحسن الحظ أن حاسة الشم عندي قوية استطيع بها شمّ رائحة المخبر أو الشرطة ولو كانوا على بعد خمسين متراً. رأيت مخبريك يقفان خارج شقتي، فلم أرجع

إليها ثانية.

ـ أجل.. قرأت تقريرهما. وعرفت مثلك، أن رجال الأمن غير قديرين على التخفي. ولهذا جئتك بنفسي هذه المرة.

تحرك نحوها بسرعة لا تصدق ووضع يده على جانبها فعلقت بين ذراعيه والمغسلة:

ـ أهربت مني كايت لأنك خلتني هجرتك؟

وتّرها قربه حتى كادت تعترف بأنها لم تهرب لهذا السبب. لكنها لم تستطع قول الحقيقة.. إنه دون شك سيطالب بتفسير سبب اختفائها في ظلمة وحرارة ليل تموز. تألمت لأنه يظنها غير ناضجة بعد وغير مسؤولة كفاية وقد هربت بهذه الطريقة الطفولية بحسب اعتقاده. لكن، ولتكن عملية، يجب أن تشجعه على التفكير في هذا الاتجاه. فقالت:

ـ لم اترك المنزل لأنك هجرتني فحسب.. هناك.. لقد تركت لعدة اسباب.

ـ اعطني سببين فقط.

ـ العم ماتيو.. ورفضك التحدث معي.

ـ صحيح.. ربما لم نتحدث بما فيه الكفاية.. لكنني لا أرى كيف تمكنت من حل المشاكل بالفرار الذي جعل التحاور والمناقشة بيننا مستحيلة.. اختفاؤك ليس بالحل الذكي كايت.

ـ تباً غراي، أنت تفعل الآن ما فعلته بي دائماً! ها أنت من جديد تعتبرني غبية بلهاء، بينما تعتبر نفسك صاحب العقل والتعقل! والله يعلم أنني حاولت أن أقول لك ما يزعجني.. لكنك كنت دائماً تتركني وتسافر الى لندن.. لقد حاولت مراراً جذبك إليّ، بعيداً عن أمك وخالتك والعم ماتيو وعن اندرو مالفود ومساعديك ومستشاريك السياسيين. لكن يبدو أن الوقت

الوحيد الذي كنت استطيع الانفراد بك كان في الفراش.. وما إن تكون في الفراش حتى تفقد رغبتك في الكلام! كنت كلما وددت التهرب من سؤال تبدأ بالتحرش بي.

وضعت يدها على فمها.. تحاول ابعاد الصورة التي مازالت راسخة الى حد الإيلام... ثم أردفت بصوت متهدج من الألم النفسي:

ـ ألا تعرف ما حدث لي في الأسابيع الأخيرة من زواجنا يا غراي؟ ألم تفهم أنني وصلت الى مرحلة كرهت فيها حتى قبلاتك!

سألها بصوت أبرد من الثلج:

ـ لماذا؟ لأنني كنت دائماً أتمكن من جعلك تتجاوبين معي؟ أهذا ما كان يغضبك؟

فولولت صائحة:

ـ أجل... ! أجل أجل أجل! ألم تفهم أن من الخطأ استخدام المعاشرة الزوجية سلاحاً لتجنب الحديث مع زوجتك؟ ألم تفهم أنني كنت أحس بالمهانة في كل مرة تجبر فيها جسدي على التجاوب رغم ارادتي؟ خلال الشهرين الأخيرين لم نكن زوجين، بل جسدين يلتقيان في الظلام!

وميض غريب ظهر في عمق عينيه الرماديتين ثم اختفى بسرعة وقال ببرود:

ـ هذا ليس صحيحاً تماماً. مهما كانت مشاعرك، كنت دوماً أحبك ونحن معاً.

حرارة داخلية مفاجئة صدمتها. فتحركت بسرعة، لكنه تحرك بسرعة أكثر، مما جعل جسديهما يتلامسان بشكل حميم لم تكن متحضرة له، أحنى رأسه حتى كادا يتلامسان، وأحست

بانفاسه تداعب عنقها وخدها. وتمتم:

ـ أتذكرين المرة الأخيرة التي قبلتك فيها؟ كنت في شهرك السادس. وضعت يدي على بطنك هكذا... وعندما لامستك شفتاي أحسست بالطفل يركل راحة يدي. فأخذت يدي لتضعيها هنا.. أتذكرين كايت؟

ورفع رأسه قليلاً لينظر الى عينيها فأجابت بهمس خشن:

ـ لا... لست أذكر... أي شيء.

فرد بصوت هامس مثلها:

ـ غريب.. أنا أذكر ذلك بوضوح.

أخذ يداعب شفتيها باصبعه، ويمرره على خدها. فحاولت اغلاق تفكيرها عما يفعل.. لكنه لم يكن يلامس تفكيرها، بل جسدها، ولسوء حظها، أن لجسدها إرادة منفصلة. أحست بالحرارة، واصبحت بشرتها حساسة بشكل غريب، موجات من الرغبة اجتاحتها، فاطبقت قبضاتها، ودفعته عنها:

ـ لا تفعل! لا أطيق لمساتك.

فابتعد عنها، لكن عينيه الرماديتين بقيتا تنظران الى جسدها بصمت ساخر:

ـ آسف. لكن عندما تذوبين بين ذراعي كما فعلت الآن.. من الصعب أن أذكر أنك كنت تجدين قبلاتي مهينة لك.

جعلهما صوت خفيف يستديران فإذا بهما يجدان سندي تقف بباب المطبخ. تحتضن الدب، وتنظر الى كايت متجاهلة تماماً وجود غراي.

مدت يدها بالدب متهمة:

ـ الدب بلل الفراش.. الدب فاسد شرير.

حملت كايت الطفلة فوراً واحتضنتها:

ـ لا.. الدب ليس شريراً ربما أصابه شيء ما. وأنا فخورة لأنه يتعلم بسرعة استخدام الحمام، الدب جيد وأنت كذلك.

ـ لكن الدب بلل سروالي.

فابتسمت كايت وهي تربت مؤخرة ابنتها العارية:

ـ حسناً.. لقد تدبرت أمرك أليس كذلك سندي؟ فلنذهب ونرى إذا كان في درجك سروال داخلي نظيف.

وتدخل غراي:

ـ أهناك مكان للغسيل في هذه البناية؟ سأغسل الشراشف لو شئتِ.

توقفت كايت في منتصف خطوتها.. نظرت هي وسندي نحوه بذهول مماثل. كايت لأنها لم تتصوره يغسل الشراشف، وسندي لأنها لم تتوقعه أن يتكلم.

ـ هناك ماكنات غسيل ونشافات في الطابق السفلي.. أتظن أن بامكانك تشغيلها؟

ـ أعتقدني قادر على قراءة التعليمات الخاصة بها.. فالجامعة علمتنا بعض الشيء.

احمر وجه كايت:

ـ آسفة، لم أكن أقصد أن أكون مجحفة. أشكر عرضك غراي. في هذه الشقة ثلاثة شراشف، سنحتاج إحداها لك.

دخل معهما غرفة النوم، ونزع الشراشف بصمت وكفاءة، بينما ركزت كايت على تغيير ملابس سندي.

كانت في غرفة الجلوس تقرأ قصة لسندي عندما عاد غراي ومعه كومة من الشراشف المطوية النظيفة المرتبة.. وزوج من السراويل الصغيرة الزهرية اللون.

ـ شراشفك نظيفة ودافئة الآن سندي، أتأتين معي لمساعدتي

في اعادتها الى السرير؟

فتراجعت الطفلة منكمشة في حضن أمها، وتمتمت:

ـ أبقى مع ماما.

لم يظهر تغييراً على وجه غراي لكن كايت أحست بخيبة أمله وكأنها أصابتها هي نفسها. فوقفت تقول لابنتها:

ـ من الافضل أن نساعده.. غراي لم يرتب فراش فتاة صغيرة من قبل. وربما لن يستطيع ترتيبه كما يجب.

سألها غراي وهما يضعان آخر بطانية فوق السرير:

ـ أهناك ترتيبات خاصة تحتاجين إليها لتركك الشقة في الغد؟

ـ لا شيء ضروري. المالك يسكن في الطابق الارضي، ولديه صندوق رسائل أمام بابه.. نستطيع وضع المفتاح مع رسالة تقول إنني لست عائدة. لست مدينة له بأجر.

ـ ماذا عن اغراض المنزل، مثل المناشف وثيابك، ألست بحاجة لتوضيبها.

ـ هذه شقة مفروشة ليس لي فيها شيء.. ثيابي وثياب ابنتي جميعها في الحقائب التي في السيارة. وليس معنا سوى بدل واحد نظيف من الملابس هنا.

ـ يبدو أنك تعلمت الخفة في السفر.. أيستحق الامر هذا كله؟ أكان زواجنا سيئاً الى حد أن تفضلي وضعاً كهذا عليه؟

في تلك اللحظات بالذات... للمرة الاولى منذ سبعة وعشرين شهراً، لم تعد واثقة. لو كانت تعلم أن العم ماتيو مات، أكانت ستعود؟ لكنها أبعدت الفكرة عن ذهنها، مذعورة من ضعفها المفاجيء... إن غراي يشكل خطراً عليها، فبضع ساعات معه جعلتها تنسى الحقيقة.. فهي لم تترك منزله فقط

بسبب العم ماتيو... لقد تركته لأن زوجها... نائب البرلمان.. الوسيم المحترم... غراهام فولوود.. كان محتالاً.

فأدارت وجهها عنه ترفع رأسها بكبرياء.

ـ نعم هذا الوضع أفضل. وأحذرك منذ الآن يا غراي.. سأحاربك حتى النهاية لأربح وصاية سندي.

برزت في عينيه كآبة غير معهودة:

ـ لم أتوقع غير هذا.

ابتعد عنها ثم تقدم وركع أمام الكرسي الذي تجلس عليه سندي، وأخذ يداعب الدب:

ـ فكرت أن نخرج لتناول العشاء.. أتحبين تناول الطعام في الخارج؟ رأيت مطعماً في آخر هذا الشارع حيث يقدمون النقانق والهامبرغر والآيس كريم الفخم.

لكن سندي، التي تعتبر الآيس كريم نعمة من السماء، بقيت صامتة عابسة. فأردف غراي يقنعها:

ـ نصطحب الدب معنا إذا أردت.. حيث نجلسه في مقعد وحده.

نظرت سندي الى أمها متسائلة:

ـ ماما؟

اجبرت كايت نفسها على الابتسام:

ـ سيعجبني تناول الطعام في الخارج.. وأنت؟ أنا جائعة، ونحن لم نأكل الآيس كريم منذ زمن طويل.

هزت الطفلة رأسها، فوقف غراي وسندي الى جانبه وقال:

ـ أمك ستحضر معطفك وتسّرح شعرها.. هل ننتظرها في السيارة؟

لم ترد عليه.. بل مدت يدها ووضعتها في يده.. وسمعت

كايت تنهيدته الخفيفة. وقال لها وهو يتوجه نحو الباب:

ـ سنلتقي في السيارة بعد دقيقتين.

ـ حسن جداً.

وخفق قلبها لدى خروجهما، وما أن التقطت سترتها ومعطف ابنتها حتى اكتشفت أن دموعها تنهمر دون وعي منها.. فالتقطت منديل ورق ومسحت خديها.. إنها لم تبكِ منذ أكثر من سنتين.. فلماذا البكاء الآن؟

قد يظن غراي أنه كسب الحرب.. لكنه سرعان ما سيكتشف، أن المعارك لم تبدأ بعد.

* * *

عبدالوفاء سودي

عبدالوفاء سودي

٥ ـ طبول النسيان

من وجهة نظر كايت، كان العشاء فاشلاً، رغم جودة طعام المطعم الذي كانافيه والخدمة الجيدة. فالساقية المراهقة المرحة التي كما يبدو تحب الاطفال، اتحفت سندي بابتسامة مشرقة. وقالت لها:

ـ هاك قطعة حلوى. هل أخرجت أمك وأباك للعشاء؟ يبدو أن والدك جائع.

فنظرت سندي الى غراي بغضب وصاحت بصوت مرتفع:

ـ ليس والدي!

ساد صمت مؤلم، لكنه كسره بهدوء وهو يطلب صحناً من اللحم المشبع بالفلفل الحار... في حين أن كايت عمدت الى طلب الهمبرغر مع كوبين من الحليب.. كانت كايت واقعاً مذهولة مما قالته ابنتها. فهي لم تكن تعلم أن ابنتها تفهم معنى كلمة «والد» أو «أبي». فعالمها حتى الآن كان ينحصر على النساء تقريباً. وقد تجنبت دوماً الشروحات غير الضرورية، لكن يبدو أنها تعامت عن ذكاء ابنتها وفضولها.

حين اقتربوا من المنزل، أخرج غراي من السيارة حقيبة أوراقه وحقيبة صغيرة تحوي ملابس نومه، بعدها صعدوا الى المنزل حيث قصد هو غرفة الجلوس، فأمضى فيها ما تبقى من

الامسية يراجع الاوراق ويكتب الملاحظات.. تصرفاته تدل على استغراق كامل فيما يفعل، عند التاسعة تماماً لم تعد كايت قادرة على تحمل الجلوس معه صامتة تدّعي القراءة. فوقفت قائلة:

ـ كان يوماً مرهقاً. سآوي الى فراشي.. متى سنسافر صباحاً؟

رفع نظره بسرعة عن أوراقه.

ـ في السابعة والنصف.

ـ سأستحم الآن. ولك إن شئتَ استخدام الحمام صباح الغد.. أيبدو لك هذا مقبولاً.

ـ عظيم.. أتودين أن أوقظك؟

ـ شكراً لك، سندي ستوقظني باكراً.. إنها أفضل من ساعة.

لم يرد... فتنفست بصمت قبل أن ترتد على عقبيها.

ـ سأحضر لك الاغطية الاضافية.. الأريكة ليست مريحة، لكنها طويلة قد تجد فيها الراحة نسبياً.

ـ لا تقلقي للأمر. رأيت أين تضعين الأغطية.. سأحضرها أثناء وجودك في الحمام.

ـ حسناً.. تصبح على خير غراي.

ـ تصبحين على خير.

تعلقت سندي بيد أمها وهما يلحقان غراي واندرو مالفود عبر ممر في مطار «غلاسكو» بعد رحلتهم من «بيرت».. الطائرة تأخرت في الوصول، وها قد مضى الآن على رحيلها عن شقتها سبع ساعات.. كانت سندي تلف دبها بالغطاء وتمتص أذنه. وهذا دليل واضح على قلقها، قالت كايت للصغيرة بعد أن كادت تتعثر في صعودها الى السلم المتحرك في المطار:

ـ انتبهي حبيبتي... من الافضل أن احملك.

كان غراي على ما يبدو غارقاً في الحديث مع اندرو مالفود لكن لدى سماعه ما قالته كايت التفت إليها فحمل ابنته بين ذراعيه. لكن سندي تلوت وقاومت قائلة:

ـ أنا أنزل.. الدب يريد ماما.. لا الرجل.

خفف غراي ضغطه على ابنته المتلوية بين ذراعيه.

ـ همم.. أنت محقة، الدب يبدو حزيناً، لذا يجب أن تعطيه لماما.

أخذ اللعبة بكل هدوء من يد سندي، متظاهراً أنه لم يشاهد عبوسها، وقال مبتسماً:

ـ خذي كايت... الدب يريد أن تحمليه.

التقوا في مطار لندن، بالسائق الذي استقبل كايت وغراي يوم عودتهما من شهر العسل... لم يبدو مسروراً أكثر مما كان عليه منذ ثلاث سنوات. لكن ارتسم على وجهه ابتسامة حين شاهد سندي.

ـ إنها تشبهك سيد فولوود.

وأخرج من جيبه قطعة من الحلوى ومد يده بها مبتسماً الى سندي:

ـ أهلاً بك يا سيدتي الصغيرة. نحن جميعاً مبتهجون بعودتك الى حيث تنتمين.

سندي، التي لم تكن تسمح لها والدتها كثيراً بأكل الحلوى قبلتها بابتسامة، ثم تصرفت بذكاء شديد فلم تلتفت الى أمها بل أعطتها لغراي كي يزيل الغلاف الورقي عنها.

ـ شكراً لك.

وأخذت تمتص الحلوى بلذة متجنبة النظر الى أمها. انهم

لم يغادروا المطار بعد والجميع يتصرف وكأن لا علاقة لها بالاشراف على ابنتها. بالنسبة للمنزل كانت دائماً نكرة... ويبدو أن شيئاً لم يتغير بعد.

فتح السائق باب السيارة لهما وقال:

ـ لعله لم يكن لديك اعتراض على تقديمي الحلوى للصغيرة سيد فولوود. فقد رأيت أن مسافة الطريق الى «تشارترفارم» طويلة بالنسبة لطفلة وقطعة الحلوى قد تلهيها.

فرد غراي:

ـ فكرة جيدة. لديها الوقت الكافي للبدء في نظام صحي غداً. يوم من الدلال لن يضرها.

فابتسمت كايت وقالت بحنق:

ـ احترس لئلا تتقيأ سندي على بذلتك.

فضحك وخلص إحدى خصلات شعر سندي من الكراميل الذي التصق بها.

ـ إنها فتاة قوية البنية.. لم يحدث أن أفراد عائلتي تعرضوا الى الدوار أثناء السفر من قبل.

قبل أن ترد كايت، كانت السيارة قد انطلقت بهم، ولفت اندرو مالفود اهتمام غراي الى رسالة وصلت مباشرة من رئاسة الوزارة ذلك الصباح، واصغى غراي باهتمام لكنه لم يحاول ترك ابنته.

سندي التي تعرف تماماً متى تكون مدللة، استمرت في تجنب النظر الى أمها.. واسترخت بين ذراعي غراي، تتلمس بفضول من وقت الى آخر صدره، وكأنها تتعجب من الفرق بينه وبين صدر أمها الناعم الدافىء. مع أن غراي كان يحس بما تفعل، لكنه لم يعلّق عليه، ولم ينظر حتى الى ما كانت تفعله

اصابعها الدبقة ببذلته الباهظة الثمن.

قسّم غراي اهتمامه بين مساعده وسندي، ولم يوجه أية كلمة الى كايت، التي لم تكن تمانع في عزلتها التي تعطيها الفرصة كي تضع خطط دفاعها في مسار أفضل. خاصة وأنه يصعب عليها تناسي مدى جاذبية غراي الشديدة...

لم يتحدث غراي إليها مباشرة إلا عندما توقفت السيارة بهم عند مدخل «تشارترفارم»:

ـ خالتي جوانيتا تعتني بالمنزل منذ سنتين.. وهي مشتاقة لرؤيتك ورؤية سندي.

بدا على وجه كايت الدهشة:

ـ لكن أين أمك؟ ولماذا لا تعتني بالمنزل بنفسها؟ لا أتصور أنها سلّمت الزمام الى الخالة جوانيتا!

ـ أمي في أوروبا.. في الواقع هي لم تسكن معي بعد رحيلك إلا بضعة أسابيع.

نظرت كايت إليه نظرة مباشرة، ولاحظت اشارة غير متوقعة من الاعتذار في نظرته:

ـ كنت أعلم دائماً أن أمي تود أن تزوجني من ابنة عم بعيد لي. لكنني لم أع مدى مقتها لوجودك ومدى الجحيم الذي جعلت عليه حياتك إلا بعد أن سافرتِ.. وألوم نفسي لأنني لم أصرّ على أن يكون لك دور أكبر في إدارة المنزل.

ـ لم تكن أمك فقط سبب سوء تفاهمنا. فقد كنت فتاة ريفية صغيرة، تعتبر تشارترفارم منزلاً ضخماً، فالخدم أخافوني لذا لم أحاول حقاً الاستيلاء على مهام أمك. واعتقد أنه لم يكن من حقي التذمر.

ـ كرمك كان أكثر مما تستحقه أمي. فبعد أن غادرت قالت

اشياء... حسناً.. على كل حال بعد رحيلك قررت أنا وأمي أن لنا آراء مختلفة بشأن البحث عنك. واتفقنا على الافتراق.

ـ ارسل لها صور سندي.. فكما أعلم أن الجدات، مهما حدث في الماضي تلين عريكتهن لدى رؤية صورة أول حفيد لهن.

ـ أنت محقة، ستحب رؤية بعض الصور.

ـ ظننت أن الخالة جوانيتا ستقاعد في قصر زوجها في كرونويل.

ـ نعم هذا صحيح... لكن بعد أن مات ماتيو، اكتشفنا أننا بحاجة الى بعضنا بعضاً. كانت أشهر مانيو الأخيرة مأساة لها. كان يتألم كثيراً، لكنه كان يقوم بمهمة ويرفض تناول الدواء حتى اللحظات الأخيرة.

ـ أنا آسفة لعذابه.

ظهرت الخالة جوانيتا عند الباب حالما خرجت كايت من السيارة، بدا الكبر عليها أكثر مما توقعت. لكن تصرفاتها كانت مرحة، بعيدة عن التوتر الذي كانت عليه في الماضي.

ـ ما أروع أن أراك ثانية، كايت. تبدين بصحة جيدة حتى أن أحداً لن يعتقد...

وتلاشى صوتها حتى أضحى همساً عندما أطل غراي يحمل سندي، وصاحت:

ـ أوه يا إلهي! إنها رائعة يا كايت.. أنت وغراي محظوظان بهذه الفتاة الصغيرة الجميلة.. أوه.. ليتنا رأيناها وهي طفلة صغيرة! تعالي وقولي مرحباً لخالتك جوانيتا حبيبتي.

مدت جوانيتا ذراعيها فرمت سندي بنفسها إليها طائعة، لكن خلال الرحلة علق ما تبقى من الحلوى في الغطاء،

فانفجرت بالبكاء.. مع أنه لم يكن لجوانيتا أولاد إلا أنها تفهمت سندي، فاخرجت لها قطعة الحلوى الصغيرة العالقة واظهرتها لها:

ـ هاك.. الحلوى سالمة.. سنأخذها الى فوق، ونغسلها لتعود نظيفة كما كانت.. كايت، لماذا لا ترافقينني لأريك الغرفتين اللتين حضرناهما لك ولسندي، فيستطيع عندها غراي واندرو متابعة عملهما، في حين نعمد الى إطعام سندي والى وضعها في الفراش قبل موعد العشاء. وأعتقد أنك بحاجة الى دقائق من الراحة أنت كذلك.

ـ بكل تأكيد، هذا عدا حاجتي الى حمام، أشعر وكأنني لم اغتسل منذ أسبوع.

صعدت جوانيتا السلم تحمل سندي وتربت ظهرها، لكنها تجاهلتها تماما، ولعلمها أن أحداً لم يكن يهتم ببكائها صمتت، وبدأت تنظر حولها باهتمام حذر. ناداها غراي من تحت بأنه سيصعد ليراها قبل أن تنام، لكنها تجاهلته. ولم تستطع كايت إلا أن تحس بالشفقة عليه لأنها أدركت أن الهدنة بينهما قد انتهت.

توقفت جوانيتا أمام الأبواب الخشبية:

ـ لقد وضعتك وسندي في غرفتين متصلتين حمامهما في آخر الردهة. إن الحمامات إحدى مشاكل «تشارترفارم» فحين تجديد المنزل في الخمسينات لم يبنَ فيه ما يكفي منها.

شهقت كايت وهي ترى الغرفة التي لم تكن تشبه تلك الغرفة الكئيبة المليئة بالأثاث الأثري المعتم التي كانت تقيم فيها. ثلاثة من جدرانها مدهونة بلون ليموني فاتح، والرابع رُسمت عليه صور مراعٍ خضراء، فيها دببة وحيوانات أليفة،

كانت السجادة السميكة الناعمة بنية اللون، والنوافذ مغطاة بستائر معدنية بيضاء جذابة. وفي إحدى الزوايا سرير صغير أصفر اللون وطاولة للأطفال قربها رفوف صفت عليها الكتب المصورة والألعاب.

صاحت سندي:

ـ جميلة! أترين ماما! انظري! جميلة!

ـ أجل.. إنها جميلة جداً. لكنني لا أفهم جوانيتا.. كيف تمكن غراي من تحضيرها بهذه السرعة؟

ـ هذه الغرفة كانت جاهزة وحاضرة منذ سنتين.

ـ منذ سنتين! لم أفهم...

ـ حين اتصل أخوك ليقول إن الطفل ولد، كاد غراي يجن...

فاحمر وجه كايت وقاطعتها:

ـ أنا آسفة. أنا آسفة حقاً لما سببته لكم من آلام...

فردت جوانيتا بحدة:

ـ لا تقدمي اعتذارك لي فلست أنا من آلمته...

تململت كايت، مدركة سخرية موقفها، إنها لا تستطيع الدفاع عما فعلت كما لا تستطيع شرح سبب هروبها بالضبط. صحيح أن العم ماتيو ميت وهذا يعني أنه لن يكشف الحقيقة، لكن غراي حي. فهل هي مستعدة حقاً لوضع والد طفلتها في السجن؟ ربما بعد وفاة ماتيو قلب غراي صفحة جديدة في حياته ووضع حداً للفساد الذي كان يعيش فيه. أوه.. يا إلهي.. لقد عادت الآن الى منزله.. أليس من واجبها إذن أن تبلغ المدّعي العام بما اكتشفته منذ سنتين ونصف؟

ـ جوانيتا.. صدقيني.. لم أكن استطيع القول لأخي أكثر

من أن سندي ولدت... وكان لدي أسباب وجيهة.. كان هناك أشخاص آخرون متورطين.. لهذا لا استطيع تفسير سبب تركي لغراي.

ـ ربما هذا صحيح في نظرك. ولكن تصرفاتك كانت قاسية على غراي، فهو لم يكن يعرف إن كان طفله صبياً أو بنتاً.. لقد قضى ثلاثة أيام بعد مكالمة شقيقك حابساً نفسه في غرفته... بعدها خرج ليوكل أفضل مخبرين في البلاد للبحث عنك، وعاد ليدهن الغرفة هذه بنفسه واضعاً لها أوراق الجدران والصور. واشترى الأثاث والألعاب تدريجياً خلال سنتين. وكان تعويضاً له عن مشاهدة طفله ينمو أمام عينيه.

أغمضت كايت عينيها ترفض السماح للدموع الساخنة بالانهمار.. لا سبب يدعوها لتحس بالذنب... فغراي كان النذل الذي سبب المأساة، لا هي. مع ذلك فما من شيء تقوله قد يقنع جوانيتا بالعكس.. فابتلعت كلمات الاعتذار التي لا قيمة لها ومدت ذراعيها لابنتها وحملتها ثم قرّبتها من صورة الجدار لتتأملا الدببة والحيوانات الأليفة.

انسلت سندي من بين ذراعي أمها وراحت تركض من أول الجدار الى آخره، ثم توقفت أمام صورة دب سمين:

ـ هذا دبي.. انظري ماما.. هذا دبي!

راحت سندي تفتش عن تلك الصورة، بينما أكملت جوانيتا:

ـ أنهى غراي ديكور هذه الغرفة في أيلول منذ سنتين.. وما من أحد منا كان يظن أن الوقت سيطول قبل أن يرى طفله ما فعله له.

نظرت كايت الى ساعتها كي تحوّل اهتمام جوانيتا عن هذا

الحديث الذي قد يضطرها الى إطلاق كلمة جارحة:

ـ يا إلهي.. الوقت يمر، وأنا وسندي بحاجة لحمام. لكنني لا أجد أثراً لحقائبنا. أتصنعين معي معروفاً وتبحثين عنها ريثما أهيىء سندي للنوم.

ـ بالطبع.. وسأطلب من مدبرة المنزل تحضير طعام خاص لسندي.. هل لديك اقتراح ما؟

ـ حساء الدجاج يكفي.. إنه المفضل لديها. لقد بلغت مرحلة تحاول فيها مقاومة ما اجبرها على أكله لأجل صحتها، وأنا الليلة ليس لي طاقة للصراع معها.

فابتسمت جوانيتا:

ـ كل من أعرفهن من الأمهات يقلن إن الأطفال في سن الثانية لا يطيعونهن.. قد تتحسن عادات أكلهم، لكن كل شيء آخر يسوء.

فتأوهت كايت:

ـ لا تخبريني عن هذا. فأنا من يحتاج الى الدلال بعد تعب اليوم.

فضحكت جوانيتا:

ـ سأرى ما حلّ بحقائبك. لا تنسي كايت، غرفتك هي المجاورة تماما. والمناشف في الحمام حيث ستجدين فرشاة أسنان في خزانة الأدوية.

ركضت سندي كالبرق تضم ساقي جوانيتا:

ـ باي باي خالتي.

وكأنها سُرَّت بهذه اللفظة، فأخذت ترددها «خالتي.. خالتي.. خالتي خذي هذه لك» ووضعت في يدها بقايا قطعة الحلوى اللزجة. وابتسمت وظهرت أسنانها الصغيرة البيضاء

«باي باي خالتي «نينا» زورينا قريباً».

تبللت عينا جوانيتا بالدموع وهي تحتضن الطفلة:

ـ آه يا ربي.. ما أروع وجودك بيننا.

أمطرت السماء في الصباح التالي، ذلك المطر الذي يتخلله ندفاً من الثلج لكن غرفة الطفلة ذات الديكور الزاهي الألوان بقيت مليئة بالنور. لم تكن كايت تتذكر متى كانت آخر مرة استيقظت فيها صباح يوم اثنين دون أن يكون لديها ما تفعله سوى الاستمتاع بوقتها. كان الاحساس بالحرية وأوقات الفراغ، رائعاً حتى نسيت أمر غراي ومشاكلها. فاستلقت على بطنها فوق السجادة السميكة الدافئة تبني برجاً من المكعبات الخشبية الملونة مع سندي.. ظاهرياً.. لكنها في الواقع كانت تتمتع هي بألوانها المختلفة. وضعت سندي مكعبين من الخشب فوق بعضهما. وقالت:

ـ برجي أحمر.

ـ لا.. فهذه مكعبات خضراء.

ـ خضراء؟ لا.. برجي أحمر.

ـ بامكانك تسميته بالاحمر، ولكن الخشب أخضر.

نظرت سندي الى أمها، ثم فقدت الاهتمام بالنقاش، فراحت تجر بطة خشبية تصدر أصواتاً وهي تتحرك حول الغرفة.. ثم ضحكت بصوت مرتفع عندما اصطدمت البطة بجدار البرج الذي بنته أمها لتهدمه، وعلمت كايت أنه لن يطول الامر بها حتى تقتحم البرج كله وتهدمه وهي تضحك...

سندي هي من لفتت نظر كايت الى وجود غراي. فجلست مجفلة على الارض تحتضن البطة الخشبية:

ـ مرحباً يا رجل.

سندي معتادة على لقاء كل أنواع الناس في ظروف عادية.. فلماذا تتصرف على هذا النحو مع غراي؟

ـ مرحباً سندي.. كيف حالك هذا الصباح؟

لم ترد سندي، بينما كايت هبت واقفة.. بدا أن قلبها قد تغيرت خفقاته الرتيبة، ثم لاحظت النظرة القاسية في عمق عينيه، فبردت الحرارة في عروقها بسرعة كما ارتفعت. وقالت:

ـ مرحباً غراي. لم نكن نتوقع رؤيتك اليوم، مدبرة المنزل قالت إنك مسافر الى لندن.

ـ أنا مسافر بالفعل. لكنني وددت التأكد من أنك تفهمين القوانين قبل سفري.

ـ القوانين؟

ـ ستجدينها بسيطة. لك مطلق الحرية في مغادرة المنزل ساعة تريدين.. إذا احتجت للتسوق، اطلبي من مدبرة المنزل لائحة بأرقام حساباتي في عدة مخازن محلية.. وإذا احتجت الى مال نقدي اطلبيه من اندرو.

أحست بجسدها يرتجف من الغضب، فأجابته بصوت أجش من الاذلال:

ـ إذا كنت تحاول اهانتي غراي فقد نجحت. لكن اعلم أنك لن تغريني بوضعك المبالغ الطائلة بين يدي.. لن أصرف فلساً واحداً من مالك. ولن أطلب بكل تأكيد من اندرو مالفود أن يعطيني شيئاً. فأنا أفضل أن أتضور جوعاً على أن أطلب شيئاً.

فرد بكل برود:

ـ هذا شأنك كما أن لك الحرية في البقاء أو عدمه، فإذا قررت الرحيل، فسيكون اندرو سعيداً كذلك في حجز مقعد لك

الى أي مكان تشائين. اجرة السفر طبعاً ستكون على حسابي.

ـ طبعاً.

تجاهل مقاطعتها وسخريتها وأردف:

ـ تذكرين بالطبع أن «تشارترفارم» محاطة بسياج مكهرب. لكن رجال الشرطة نصحونا منذ مدة أن نشدّد الاجراءات الأمنية داخل المنزل، ومنذ رحيلك وضعنا في المنزل اجهزة جديدة. وبدون بطاقة ممغنطة خاصة لا يمكنك المرور عبر الأبواب.

إذن فمغادرة «تشارترفارم» ستكون أصعب مما تصورت.. تقدمت كايت نحو السرير تجلس على طرفه وتضع سندي على ركبتيها، فقد أحست أنها بحاجة الى دفء جسد ابنتها.

ـ هل ستعطيني إحدى هذه البطاقات؟

ـ لا.. لن أعطيك بطاقة، فكما قلت أنت حرة في مغادرة المنزل ساعة تشائين شريطة أن تكوني وحدك.. لن يسمح لك بالخروج مع سندي.. وأحذرك.. الجميع هنا من العمال المؤقتين الى الخالة جوانيتا يعرفون أنه من غير المسموح لك بالخروج من المنزل مع ابنتك إلا إذا كنت أنا معك.

وقفت كايت تحمل طفلتها وتقدمت نحو النافذة وقالت:

ـ حسناً.. أعتقد أن هذا كل ما نحتاج الى قوله.

ـ لا ليس ما نحتاجه بل ما أنت مستعدة لسماعه حالياً.

فالتفتت إليه مبتسمة:

ـ رحلة موفقة سيدي عضو مجلس العموم.. ولا تسرع في العودة من أجلي.

ـ سأعود غداً مساءً.

تقدم نحوها ليلمس سندي، ويسألها:

ـ كيف وجدت سريرك الجديد؟ صعدت إليك لأقرأ لك

قصة ليلة أمس. فوجدتك نائمة. أرجو أن تعجبك هذه الصور واللعب كلها.. اخترتها خصيصاً لك حالما عرفت بولادتك.

نظرت الطفلة إليه بصمت، ثم حولت بصرها الى الفراش، فالصورة، ثم إليه وقد بدا ظاهراً أنها فهمت ما يقول، لكنها تتعمد عدم الرد. فوضع يديه في جيبيه وقال محبطاً:

ـ سندي، أنا والدك، وأريد أن أكون صديقك. عندما أعود من رحلتي، هل لنا أن نمضي الوقت معاً لنتصادق؟

اغمضت سندي عينيها ودفنت رأسها في عنق أمها. فراقبها غراي بصمت للحظات ثم التفت فجأة واتجه الى الباب:

ـ لا تشتاقي إليّ كثيراً أثناء غيابي.

واقفل الباب بحدة.

حدقت كايت في الباب المغلق الى أن أحست بأصابع ابنتها تمسك بذقنها:

ـ ما الامر حبيبتي؟

ـ الرجل ذهب.. انظري إليّ.. لا تنظري الى الرجل.

ـ لا تقلقي سندي... أعدك أن غراي لا يريدني أن أكون أمه.

انسلت من بين ذراعي أمها وركضت نحو البرج الذي بنته كايت قبل دخول غراي، وأخذت تركله وتعيث فيه فساداً. ثم التفتت الى أمها:

ـ كله وقع.

ـ أجل.. وقع كله.. أنبني برجاً آخر أكبر منه؟

التقطت سندي أكبر قطعتين من الخشب وضربتهما معاً. سألت الصغيرة أمها وجبينها متجعد من التركيز.

ـ الرجل أبوك؟

ـ لا.. غراي ليس أبي.. إنه زوجي.. غراي هو أبوك أنت سندي.. أبوك أنت.

رمت سندي المربعين من يدها والتقطت دبها وقالت بلهجة لا تتحمل الجدال:

ـ الدب أبي.

وادارت ظهرها الى كايت وسارت نحو رف الالعاب، ووجدت لعبة طبل وضربت عليه عدة مرات، مكررة:

ـ الدب أبي.

وأخذت تضرب الطبل أكثر فأكثر ليرتفع صوته عالياً، وسرعان ما استحوذ نغم الطبل على تفكيرها فحملته تدور به في الغرفة تضربه وتضحك للصوت الذي يصدره.. ونسيت كل شيء عن غراي.

حسدت كايت ابنتها.. فهي بحاجة الى ما هو أقوى وأهم من الطبل لتخرج غراي من تفكيرها.

* * *

عبدالوفاء سودي

٦ ـ وسرت النيران

توقف المطر مساء الاثنين، وعندما حل موعد الغداء يوم الثلاثاء كانت الشمس قد جففت أسوأ برك الوحل. وبدت الخالة جوانيتا فخورة بالطقس وكأنما هي المسؤولة عن تحسن الطقس، فتبرعت بأن تصحب سندي الى المكتبة المحلية حيث سيقيم بعض المتطوعين مسرحية دمى متحركة.

اغتنمت كايت فرصة الفراغ أمامها فاستعارت إحدى سيارات العائلة لتذهب الى كامبردج.. مع أنها لم تكن تفكر في مكان خاص تقصده إلا أنها بعد عدة دورات حول المبنى الذي فيه مكتب المدعي العام، قررت التوقف عن خداع نفسها، فأوقفت السيارة في الموقف ثم راحت تتلاعب بمفاتيح السيارة لحظات.. لماذا تقوم بهذا؟ ماذا تحاول أن تثبت لنفسها؟

كانت داخل المصعد تضغط على زر الطابق السابع حيث يقع مكتب المدعي العام. كانت تسعى وراء معجزة. تريد أن يخبرها المدعي العام أن الشركة المتحدة للمقاولات لم تغش الدولة البتة. أرادت من المدعي العام أن يقول لها إن غراي بريء من أي خطأ.

التوى فمها بابتسامة مريرة: لماذا تأمل أن يكون غراي بريئاً؟ لا بد أنها أسوأ محامية فيما يتعلق بأمور زوجها... لماذا

تعتبره الى الآن نائباً يهتم كثيراً بمصلحة ناخبيه؟ نائباً يعمل حقاً جاهداً ولا يختبىء وراء واجهة مزيفة؟

كان تشارلز ميدلاند، مساعد المدعي العام، واحد زملائها السابقين، يتحدث مع موظفة الاستقبال عندما دخلت كايت المكتب.. فرحب بها بدهشة ثم رفع يده على كتفها يرحب بها قلبياً.

ـ سمعنا أنك كنت تدرسين خارج البلاد، وأنك كنت تعملين مع إحدى وكالات الأمم المتحدة، متى رجعت الى هنا؟

إذن هذه هي القصة التي اختلقها غراي لتغطية سبب غيابها، وقررت أن لا فائدة من تصحيح هذه المعلومات:

ـ ما عدت إلا منذ يومين... وابنتي مسرورة بالعودة، إنها تحب البحر حتى عندما يكون الطقس ممطراً.

ـ وأولادي كذلك.. أقسم أنني لو تركتُ لهم الحبل على الغارب لسبحوا في كانون الأول. لماذا لا تدخلين الى مكتبي لأقوم بواجب الضيافة، وسأقص عليك ما كان يجري هنا، وتخبريني عن زوجك الذائع الصيت.. ما عدنا نراه كثيراً... هل سيتقدم حقاً الى عضوية مجلس اللوردات في السنة القادمة؟

دخلت مع تشارلز الى مكتبه حيث أزال كيس مشتريات وكومة ملفات عن الكرسي الوحيد.. فابتسمت:

ـ لم يتغير هنا شيء يا تشارلز.. لا أدري كيف تجد ما تضطر الى البحث عنه.

فضحك دون حرج:

ـ نظام الملفات عندي ممتاز، لكن المشكلة انني وحدي من يعرفه..

ـ وكيف حال الجريمة في هذه المقاطعة؟

عبدالوفاء سودي

صب لها ولنفسه فنجانين من القهوة وجلسا يحتسيانها ويخبرها بايجاز سريع عن بعض القضايا التي يحقق فيها المكتب حالياً. كذلك ذكر لها بعض الشائعات في المكتب.. المدعي العام السابق رقيّ الى مرتبة القضاة، وهذه مرتبة يظن تشارلز أنه جدير بها والمدعي العام الجديد رجل نزيه. لكن من وجهة نظر تشارلز تعوزه براعة سلفه في مهاجمة معاقل الجريمة المنظمة.. ارتشفت كايت من قهوتها ثم سألت:

ـ لقد قرأت بعض الأمور عن شركة المقاولات المتحدة... لقد جمع هذا المكتب بعض المعلومات عنها منذ سنتين تقريباً. وليس من العادة أن يوجه مكتب فرعي للادعاء العام لائحة اتهامية تثير الصحافة.

ـ أجل.. لقد قام مكتبنا بعمل رائع. في الواقع كما قلت هذه الوثائق الاتهامية وصلتنا منذ سنتين بعد وقت قصير من رحيلك. وكانت هذه القضية آخر قضية استلمها المدعي العام قبل أن يُرقى الى سلك القضاء. لقد استطاع اثبات التهمة على كل مسؤول كبير في تلك الشركة اللعينة. سبب الأوغاد لادارة المنطقة خسارة مقدارها ثلاثة ملايين جنيه، والأنكى أنهم بنوا جسوراً غير صحيحة المقاييس.. وكنا محظوظين في الوصول إليهم والحصول على سجلاتهم قبل أن يتسببوا بكارثة فادحة، كانوا يدفعون الرشاوي للمفتشين في الوزارة وفي إدارة الطرقات العامة. والله يعلم كم من المفتشين كانوا متورطين. لكننا تمكنا من اثبات التهمة على ثلاثة فقط. أحدهم كان يعمل في رئاسة الطرقات العامة في لندن. لقد حُكم عليه بالسجن خمس سنوات. وكان يعلم أن الشركة على وشك نقل اعمالها الى لندن وأن هناك شخصية كبيرة مجهولة كانت تسهل لها الامور.

أحست كايت بنقطة عرق ثلجية تنحدر الى عنقها من الخلف.. لقد مات العم ماتيو في الوقت المناسب، لكن لا تعرف كيف أفلت غراي من شبكة الادعاء العام. أيمكن أن يكون المدعي العام قد اضطر الى التغاضي عنه لقاء الترقية التي نالها؟ لا.. غير معقول، فسلطة ونفوذ عائلة فولوود لا يمكن لها أن تؤمن منصب قضاء لمن لا يستحقه.

امضت مع تشارلز نصف ساعة أخرى في أحاديث متفرقة، ثم جالت معه في مختلف المكاتب تعيد التعارف بينها وبين زملائها القدامى وتتعرف الى الجدد.. وقال لها تشارلز وهو يرافقها الى المصعد:

ـ زميلتك ميليسا ستترك العمل في الشهر القادم.. زوجها نقل الى لندن. وعليك التفكير بالتقدم لوظيفتها.. سنحب جميعنا عودتك إلينا.. كنا فريق عمل ممتاز.

فابتسمت:

ـ شكراً للدعوة. لكنني واثقة مما سأفعله مستقبلاً.

ـ آه.. ها..! كنت متكتمة حتى الآن.. لكنني متأكد أن غراي سيرشح نفسه لمنصب مجلس اللوردات، وأنت ستكونين المستشارة القانونية لحملته! صح؟

ـ لم نقرر شيئاً بعد.

وفتح لها باب المصعد:

ـ سيكسب بسهولة.. إنه ذكي جاد في عمله، ذو سمعة جيدة والجميع يعلم أنه لن يكون مرتبطاً مع أحد. أنا مسرور له.. فنحن بحاجة لمن يمثل مقاطعتنا.

لقد ارادت من هذه الزيارة معرفة الحقيقة وقد عرفتها الآن. إن الشركة المتحدة كلها فساد. ألقي القبض على من خالفوا

القانون ولم يسلم منها إلا العم ماتيو.. وغراي فولوود.

عاد غراي من لندن حوالي السابعة مساء. والتقته كايت في ردهة الطابق الاعلى وهي خارجة من الحمام، شعرها رطب تغطيه منشفة صغيرة.. كانت على وشك أن تفتح باب غرفتها وتدخلها دون أن تكلمه لولا إمساكه بيدها.

ـ كايت.. أتخرجين الليلة معي للعشاء. ثمة أشياء يجب أن نناقشها عاجلاً.

طوت ذراعيها حول جسدها لتخفي مشاعرها التي تأثرت بلمسته:

ـ اعتقد أنه من الخير أن نتناقش في مكتب محاماة.. لا حول مائدة عشاء.. فلست أرى ما يمكن لنا مناقشته على حدى.

ـ ألا يمكننا هذا يا كايت؟ أتريدين حقاً أن يقرر مصير ابنتنا قاضٍ متعب لا يعرف شيئاً عنها سوى ما يختاره محامونا لقوله له؟

ـ لا.. بالطبع.. ولكن...

ـ الله يعلم أنه صعُب عليّ تقبل ما فعلته.. لكنني أثق أنك تريدين الأحسن لابنتنا.. ألا تثقين بي بالمقابل؟ أليس من الخير لسندي لو نتناقش بشأن الوصاية.. وحدنا نحن الاثنين؟

ـ ربما.. لست واثقة.

أمسك طرف المنشفة ليجفف نقطة ماء تسربت الى اطراف صدرها.. وكرر بصوت أجش:

ـ تناولي العشاء معي الليلة!

هزت رأسها بالقبول، بعد أن رفضت شفتاها التفوه بالكلمات. وحين أصبحت وحدها في الغرفة، حاولت تبرير ما

فعلت.. فكانت الحقيقة الموجعة، أنها قبلت الخروج معه لأنها تريد أن تكون معه لا لسبب آخر. والمعلومات السلبية التي حصلت عليها اليوم من مكتب المدعي العام، لم تؤثر سلباً على اقتناعها به.

لم يتطلب اختيار ما سترتديه إلا نصف دقيقة، فميزانيتها خلال السنتين الماضيتين لم تسمح لها بشراء ما هو فاخر. كانت تملك فستاناً واحداً فيه رائحة الأناقة، اشترته لترتديه عندما تقابل من ستعمل عنده.

دخلت غرفة سندي فقبلتها قبل النوم.. كانت الظلمة في الغرفة ضئيلة، لكن كايت استطاعت رؤية ابنتها التي كانت ذراعاها مفتوحتين حيث الدب مستلق على صدرها. لكنها لم تكن وحدها في الغرفة.. بل كان غراي يقف دون حراك الى جانب السرير، تمسك يداه بمقدمة الحاجز السفلي. أحست كايت أنه يتوق الى أن يمد يده للمس طفلته. لكنه لسبب ما، يخشى أن يفعل.

اصبحت كايت قرب السرير تقريباً قبل أن يحس غراي بوجودها، فتحرك مبتعداً لئلا ترى تعابير وجهه.. انحنت تلامس شفتاها وجنة الفتاة التي قالت بصوت مبتهج:

ـ ماما!

ثم عادت الى النوم. نظرت كايت الى غراي فرأته يرفع يده عن عينيه.. ثم يضحك ضحكة شاحبة مليئة بالمشاعر المكبوتة:

ـ أنا والدها بحق الله! لكنني كنت أخشى لمسها.. أليست هذه سخرية؟ ظننتها ستخاف مني عندما تراني.

ودون أن تتوقف لتزن كلماتها قالت:

ـ لا تقلق غراي.. ستعتاد عليك قريباً.

ـ طبعاً.. ربما بعد سنتين أو ثلاثة ستتوقف عن مناداتي يارجل.

لا بد أنها تتخيل.. لكنها كانت على يقين من أنه رفع يده الى عينيه ليمسح دمعة.

ـ علينا أن نتحرك، لقد حجزت الطاولة للساعة الثامنة، وها الوقت قد أزف تقريباً.

ثم وقف لينظر إليها بحيرة ثم سألها:

ـ كايت.. هل لك أن تشرحي لي أمراً أرجوك..؟ لماذا تكرهينني الى هذا الحد؟

ـ ألا يجب أن نذهب الآن؟ في الواقع أنا لم أتغدَ اليوم واشعر بالجوع.

أثناء الطريق الى المطعم حمل غراي العبء الأعظم من الحديث، تاركاً نقاشهما بعيداً عن المواضيع الشخصية.

كان المطعم مرضياً خفيف الاضاءة، يقدم اطعمة من اللحم وسمك البحر، عليها لمسات المطبخ الفرنسي..

حاول غراي أثناء تناولهما إبعاد خلافاتهما جانباً فتصرف بطريقة رائعة، كان جريئاً ومسلياً الى حد خطير، فقاومت كايت بشراسة لئلا تنجرف الى سحره... وخداع الزمن... فقد يسهل عليها تخيل أنهما عادا الى زمان اللقاء في لندن، زمان بداية تعارفهما.. حين كان وجودها قربه يجعل مشاعرها ترتقي الى قمة التوتر. لقد سهل عليها أن تتخيل عودتهما الى تلك الايام، خاصة وأن كل دقيقة تمضيها برفقته هي برهان جديد على أن فكره وروحه يتناغمان مع فكرها وروحها.

ـ قلت إنك تريد الحديث عن الاتفاق على الوصاية، ولهذا جئنا الى هنا.

ـ هذا أحد الاسباب... كايت.. نحن ناضجان وأنا واثق أننا نريد الافضل لابنتنا.. كما أننا نعرف أن الاطفال ينمون سعداء أكثر إذا كانوا في بيت فيه أبوان محبان.

ـ إنه لمن سوء الحظ ألا يطابق الواقع النظرية دائماً.

ـ أعرف.. لكن في حالتنا.. أظننا قد نتمكن من توفير أجواء مثالية لسندي.. على الاقل في السنوات القليلة القادمة.

ـ وماذا تقترح؟

ـ أرى أننا أحسن حظاً من كثير من الآباء الذين يكتشفون صعوبة العيش معاً. «فتشارترفارم» منزل واسع، وأنا أسافر كثيراً، وبما أنك ستزاولين مهنتك من جديد فهذا يعني أنك ستقضين وقتاً كبيراً خارج المنزل. وبناء على هذا، يبدو لي أننا قادران على الاستمرار في العيش في المنزل نفسه الى أجل غير محدد دون أن نرى بعضنا حقاً. وسيكون لسندي في هذا فائدة كبيرة.

أبعد غراي صحنه من أمامه، ثم أردف:

ـ لست غبياً يا كايت، أعلم أنك تخططين إما للقتال لتربحي الوصاية عبر المحاكم أو لسرقة سندي حالما تسنح لك الفرصة. لكن ليس هناك جدوى من الهرب، وهذا ما بتُّ تعرفينه جيداً.. والآن، بعد أن وجدتك، لن اترك ابنتي تبتعد عن حياتي ثانية. وإن حاولت سأقتفي أثرك أينما حللت.. أهذا حقاً ما تريدينه لابنتنا؟ حياة كلها فرار وسرقة ورعب؟

مد يده ليمسك بيدها بين اصابعه الطويلة السمراء فأشعل النيران في جسدها الخائن...

قال لها واصبعه يتلمس ظهر يدها:

ـ أيجب أن تكون الحياة بيننا على هذا النحو؟ مهما كانت

مشاعرنا تجاه بعضنا كايت.. أظننا نقدر على تأمين ما هو الافضل لابنتنا.

منذ زمن.. عندما كانت ساذجة، كان بامكانها رفض خطته فوراً وبصراحة. لكنها الآن، وبعد خبرة سنتين في الهروب، اصبحت أكثر حكمة. إنه يعي تماماً نواياها، وإذا كانت تريد الهرب منه ثانية، فسيتطلب هذا تخطيطاً حذراً. وأولى متطلباته أن تفعل كل ما في وسعها لازالة شكوكه. تظاهرت بالتفكير ثم قالت:

ـ تبدو خطتك معقولة... استطيع رؤية فوائدها التي ستعود على سندي.. لكنني لست واثقة أن هناك منزلاً قد يحوي شخصين يكرهان بعضهما.

ـ وهل نكره بعضنا حقاً؟ رغم كل شيء، لم أستطع اقناع نفسي بهذا.

اغمضت كايت عينيها واحاطت نفسها بدرع حصين لأنها ما عادت تحتمل التفكير في ما قد يكون الرد الصحيح على سؤاله:

ـ أظن قد نجد حياتنا معاً غير مريحة.

ـ ربما.. لكن ما هو البديل؟ أتودين المجازفة في معركة مفتوحة لكسب الحضانة؟ هل أنت متأكدة مئة بالمئة من كسبك المعركة؟ سأكون صريحاً معك كايت، لا أعرف كيف سيحكم أي قاضٍ بيننا. ولهذا أقدم هذا الاقتراح.

ـ وأنا كذلك لست واثقة تماماً من كسب القضية. فقضايا الحضانة لم تعد لصالح الأم دائماً. ومن الواضح أنك قادر على تقديم فوائد عديدة لسندي قد يستحيل عليّ تقديمها.

ـ إذن لماذا لا تقبلين البقاء في «تشارترفارم»؟ ما ستخسرين إن بقيتِ؟

ـ أعتقد أنه منزل كبير. قد ننجح في تجنب الالتقاء فيه، فأنا أخطط للعودة الى العمل.

ـ الى أين ستعودين؟

ـ زرت مكتب المدعي العام اليوم.

ـ آه.. هل قابلت المدعي العام الجديد؟

ـ فترة قصيرة. لكنني أمضيت وقتاً أطول مع زملائي السابقين. أتذكر تشارلز ميدلاند؟ لقد قال لي إنه سيكون هناك وظيفة شاغرة في مكتب المدعي العام قريباً.. وأفكر في أن أقدم طلباً للحصول عليها.

ـ إذا كان هذا ما تحبين.. فأنا موافق.. إن خالتي جوانيتا ستكون سعيدة في تربية سندي، ومكتب المدعي العام سيستفيد من خبرتك ومهارتك. فليس لدى هذا المدعي العام الجديد نصف ما كان لدى سلفه من خبرة. لذا هو بحاجة الى أن يكون حوله فريق عمل جيد للقضاء على الجرائم في هذه المقاطعة.

ـ لقد تأخر الوقت غراي. وسندي عادة تستفيق مع طلوع الفجر. فإذا كنت تنوي طلب الحلوى فالافضل أن تستدعي الساقي.

ـ ما رأيك بآيس كريم التوت.. أنا لن أتناول شيئاً لأنني أخفف من تناول الحلوى حفاظاً على وزني.

ـ لن أتناول الحلوى.. أظنني جاهزة للخروج. إلا إذا رغبت في القهوة.

ـ لا.. لا أريد القهوة.

بدا لها فيما بعد أنها تتخيل التوتر الجسدي بينهما. لقد أمضت السنتين الاخيرتين بعيدة عن هذه المشاعر. لكن من غير المعقول أن يبقى غراي على عزوبيته أو يُبقي نفسه محروماً..

وجدت فكرة أن يعاشر زوجها امرأة أخرى أمراً لا يطاق فهبت واقفة على قدميها بسرعة.

لم يحاول منعها، بل انضم إليها بعد دقائق ليسوي الحساب، ثم رافقها بصمت الى السيارة. وقال وهما عائدان:

ـ اخبريني شيئاً عن سندي.. أتظنينها اعتادت الاقامة في القصر؟ أراها على وفاق مع الخالة جوانيتا.

أكملا الحديث على هذا النحو الى أن أوقف غراي السيارة في المرآب. حيث اجتازا ببطء الباحة. المنزل صامت.. فالخالة جوانيتا كانت تخلد الى النوم باكراً، وسندي نائمة..

قصدا غرفة سندي فإذا هي مستلقية على بطنها، شعرها مفروش على الوسادة.. وقف غراي يراقب كايت وهي تدثر ابنتها بالغطاء، ثم انحنى يقبل ابنته.

ـ لابأس بتقبيلها أثناء نومها لكنني أتوق الى اليوم الذي تسمح لي فيه بتقبيلها في يقظتها والى اليوم الذي تتوقف فيه عن مناداتي بـ «يا رجل».

نظرت كايت إليه ثم الى الطفلة، ثم أشاحا بنظرهما معاً الى البعيد.

عند باب غرفتها قالت:

ـ حسناً.. تصبح على خير غراي.

ـ لا تذهبي..

وببطء متعمد، مد يديه فوضعهما حول وجهها، يلمس وجنتها بأنامله:

ـ اشتقت إليك.

حاولت كايت تجاهل وهن ساقيها، لكنها أبت الاستسلام الى الشوق الغامر الذي جعلها تتمنى أن تضع رأسها على

صدره. كما أبت الاعتراف بشرارات الاحاسيس التي باتت أصابعه تبثها وتنشرها في جسدها كله وصولاً الى اخمص قدميها. قالت:

ـ حسناً غراي.. شكراً لك على العشاء اللذيذ. منذ زمن لم أتناول مثله.

ـ صدقيني، كنت سعيداً بك. سأسعد بوجودك معي دائماً.

كان كلامه همساً ووجهه لا يبعد عن وجهها ستتمتراً واحداً.. فتوقف قلبها، ثم أخذ يسابق الزمن.. فقالت:

ـ يا إلهي.. الوقت جاوز منتصف الليل. غراي الوقت متأخر.. وأظن أن علينا الايواء الى الفراش.

ضحك ضحكة أشبه بالتأوه وتمتم:

ـ وهذا ما أظنه أيضاً. إنني في الواقع لم أفكر إلا في هذا منذ ثلاثة أيام.

رفضت ساقاها حملها فترنحت ووقعت بين ذراعي غراي الذي ضمها الى صدره.

ـ كايت... يا حبي.. لقد مضى زمن طويل! كنت أحياناً استلقي في الفراش أفكر، أمن الممكن أن يموت الانسان من الرغبة في انسان آخر.

أحست به يرتجف بعد أن استسلمت كلياً الى عناقه.. مداعباته الماهرة أثارت شوقها.. كان يجب أن تفزع من المشاعر التي تثيرها فيها لكنها بدلاً من ذلك أحست بالسعادة لأنها عرفت أنها مازالت قادرة على قلب قوته الهائلة الى ضعف مرتجف. لكن هذا الضعف كان نسبياً، فقد انحنى فجأة ليحملها بين يديه ويتجه بها الى غرفته. الغرفة التي كانت يوماً لهما. الغرفة التي حملت فيها بسندي.

ارجع اغطية الفراش الى الوراء، وانزلها بهدوء فوق الوسائد:

- يا إلهي كايت..! إذا كان حلماً هذا، أرجوك لا توقظيني منه.

وقع صوته الأجش خدّر كل تفكيرها وفي الوقت نفسه زاد من تجاوبها. فأحست بعودة الحياة الى جسدها الذي مات منذ سنتين. حرارة أنفاسه داعبت بشرتها، وقلبها خفق لأنها شعرت به يتفوق عليها.

حاولت عبثاً تنظيم بعض الافكار المنطقية، مذكرة نفسها بأنه كان دائماً يستخدم هذا السلاح نفسه ليتهرب من اسئلتها... كما ذكرت نفسها بالاسباب التي أدت الى عدم ثقتها به.. لكن المنطق بدا لها خداعاً الآن، وحرارة جسده وحدها الحقيقة.. فقد سرت حرارة شوقه إليها كما تسري النار في الهشيم... نعم كان تفكيرها على شفير الاستسلام، إلا أن مشاعرها رحبت بالحرارة.

مع ذلك تأوهت بضعف، ورأسها يتحرك من جهة الى اخرى دون معنى، وكأنها تحاول الرفض:

- لا... لا يا غراي.. لا أريد هذا...

ولكنها كانت صرخة احتجاج لا داعي إليها... بل كان الاحتجاج الأخير الذي قام به عقلها الواعي... وكان آخر لحظة تعقل في ظلام رغبتها. من بعيد.. بعيد.. تهادى إليها صوت طرقات مطرقة، فتساءلت ببعض التعقل لماذا يعمل نجّار في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل. ثم، لم يعد هناك مكان للتعقل والتفكير.

لكن الطرق أبى أن يتوقف.. بل ازداد ارتفاعاً. ورفع غراي

رأسه أخيراً. وقد ادركا أن الصوت لم يكن ضربات مطرقة، بل طرقات طارق على باب غرفة النوم..

شتم غراي متمتماً بصوت منخفض، ثم ابتعد عنها ليقف.

استلقت متعبة في الفراش لا تعي شيئاً إلا لهيب الرغبة الساري في عروقها سريان المخدر. نظرت الى غراي وهو يفتح الباب وأحست بالراحة لأنه أبقاه مغلقاً بعض الشيء بحيث حجب الفراش عمن في الخارج.. أخيراً استلقت على صدرها تحاول التقاط شتات ذاتها.. سمعت صوت الخالة جوانيتا المرتبك يقول:

- آسفة لازعاجك غراي.. اعلم أنك تقفل سماعة الهاتف الداخلي عندما لا تريد أن يزعجك أحد، لكن سفيرنا في «أنغولا» على اتصال معك الآن من افريقيا.. إنه أمر يتعلق بمجموعة طلاب جامعيين علقوا وسط اضطرابات أمنية على حدود «زامبيا» وهؤلاء الطلاب من مقاطعتنا.

- أنت محقة في ايقاظي.. شكراً لك تمرير الرسالة جوانيتا، سأتكلم معه من هاتف هذه الغرفة.

اقفل الباب وتقدم رأساً الى طاولته. والتقط الهاتف:

- غراي فولوود يتكلم. آسف على تأخري سيدي السفير، كيف أستطيع مساعدتكم؟

نزلت كايت عن السرير، ووقفت بهدوء قدر استطاعتها.. سوّت ملابسها المشعثة بأصابع مرتجفة، وكان غراي يراقبها. لكن اهتمامه كان منصباً على المعلومات التي يتلقاها من السفير. ولم تستطع كايت إلا أن تشكر الثوار الافارقة الذين انقذوها دون ارادتهم من الوقوع في غلطة فادحة.

سمعت غراي يقول:

ـ حتى لو استطعت الاتصال بالجميع، فسيلزمني على الاقل عشرة مكالمات هاتفية لأجمع لك المعلومات التي تريدها. اتصل بي بعد ساعة. أظن أن خطوط هاتفك محمية من التنصت، أما خطي فلا.

تسللت كايت من الغرفة دون كلمة، ثم سارت نحو غرفتها. كانت تعلم إنه لن يأتي إليها تلك الليلة، لأنه سيصب اهتمامه كله لإنقاذ أولئك الطلاب، لكن كيف لشخص باع مواطنيه الى مجموعة من المحتالين والمخادعين، أن يظهر مثل هذا الاخلاص في عمله.

انبلج الصبح وهي لم تصل بعد الى رد يرضي تساؤلها. بينما كانت تلبس ثياب النهار أدركت أنها تعرف الآن حقيقة واحدة عنها وعنه... ما حدث ليلة أمس لم يكن انحرافاً مؤقتاً من جهتها فحسب بل إنه حقيقة واقعة وهي أنها عرضة لجاذبية غراي لذا لن تنفع مقاومتها أبداً فلو بقيت هنا، عاجلاً أم آجلاً، سوف تخرق كل المبادىء التي تؤمن بها وينتهي بها الامر بين ذراعيه... ولو أنهما عادا الى بعضهما مرة واحدة، لن تعود على ثقة من أنها ستتمكن من تركه ثانية.

هناك فقط حل واحد منطقي للمأزق. يجب أن تهرب لتنقذ نفسها لا ابنتها. عليها أن تنجو من «تشارترفارم» قبل أن يخونها جسدها خيانة عظيمة.

* * *

عبدالوفاء سودي

عبدالوفاء سودي

٧ ـ جنون الشوق

بعد يومين من المفاوضات الرفيعة المستوى، سمحت حكومة «زامبيا» لطائرة عسكرية أن تحط في مطار صحراوي على الحدود الانغولية، لنقل طلاب جامعة كامبردج الاثني عشر مع اساتذتهم الى بلادهم. كانت المجموعة تدرس مبادىء علم الاثار في تلك المنطقة. لم يكونوا يدرون ما يجري حولهم حتى وجدوا انفسهم بين ناري الثوار وقوات حكومة انغولا، وكلاهما مصمم على تدمير أو احتلال القرية التي هم فيها.

عندما عاد الطلاب بسلامة الى ديارهم، ظهر غراي على شاشة التلفزيون الرسمي، يتحدث عن وجوب اعلام المواطنين الانكليز، عن الاوضاع السياسية في البلدان الغريبة قبل انتقالهم إليها. وسأله المذيع:

ـ عرفت، سيدي النائب، أنك أجريت بنفسك أكبر قدر من المفاوضات مع الحكومة والثوار للسماح للطائرة العسكرية بالهبوط هناك.

ـ انقاذ مواطنينا بسلامة كان وليد جهد عديد من الشخصيات والوكالات الحكومية.. وسفيرانا في كل من انغولا وزامبيا قاما بجهد كبير لاطلاق عملية التفاوض.

ـ مع ذلك سيدي، عرفت من أكثر من مصدر، أن صداقتك

الخاصة بالجنرال ماغومبا هي التي اقنعته بالسماح للطائرة بالهبوط في منطقة عسكرية ساخنة تسيطر عليها قواته.

قطب غراي حاجبيه منزعجاً كأنه لا يريد الرد، فاعتقدت كايت ذلك تواضعاً منه. لكنها سمعته يقول:

ـ أنا وماغومبا كنا معاً في كلية الحقوق في جامعة كامبريدج.. وهو رجل ذكي ومتعلم، لذا لا أرى أنه قد يسمح بأذية مواطنين انكليز لا ذنب لهم إلا أنهم طلاب علم.

فجأة ابتسمت سندي واشارت الى التلفزيون:

ـ هذا رجلي... انظري ماما.. هذا رجلنا.. رجلي رجل طيب!

ـ أجل سندي.. هذا هو والدك!

اعطت إميلي، مدبرة المنزل موزة لسندي وقالت لها وهي تداعب خدها:

ـ ألست دهشة من رؤية ابيك على الشاشة؟ إنه رجل تفخر به كل فتاة. ألا يمكن أن تقولي أبي؟ إنها ليست كلمة صعبة؟ قولي.. با.. با.

لم ترد سندي عليها لأنها كانت تنظر الى التلفزيون:

ـ الرجل ذهب.

وقضمت الموزة...

بعد ثانيتين، دفع اندرو مالفود باب المطبخ واندفع نحو البراد:

ـ آسف على تطفلي.. لكننا نريد المرطبات في المكتب... مدير حملة غراي الانتخابية يكاد يصاب بسكتة قلبية.

فسخرت منه إميلي:

ـ هذا ليس بالجديد. إنه لا يسر إلا عندما يتسبب بأزمات جديدة.

فسألت كايت:

ـ وما المشكلة هذه المرة؟

ـ يا إلهي ألم تسمعا ما قاله، لقد دفعه المذيع الى الاعتراف بأنه كان يعرف الجنرال ماغومبا منذ سنوات.. وقبل أن ندري ما حدث ستكون صحف الحزب المنافس قد بدأت تنشر اخبار تعاطف غراهام فولوود مع الثوار.

أحست كايت، دون أن تدري، بأن ضربة وجهت الى ضلوعها فسألت بلهفة:

ـ وهل هذا أمر سيء؟

ـ إنه أمر سيء جداً في الحملة الانتخابية.. فمواطنو هذه المنطقة يحبون أن يمثلهم الرجل اللطيف الطيب المعتدل لا المتطرف نصير الثوار.

لهذا إذن عبس غراي، لا لأنه متواضع لا يريد أن يظهر بصورة البطل، بل لأنه كان يخشى الرد. يا إلهي.. ألن تتعلم أن تراه كما هو حقاً لا كما تحب أن تتصوره؟

وقالت:

ـ ليس من الضرورة أن يوافق غراي على آراء ماغومبا السياسية لأنه كان زميلاً له في الجامعة.

ـ كلانا يعرف هذا. لكن حاولي قول هذا لمراسلي صحف المعارضة. من الافضل أن اعطي جيف ما ينعشه.. لقد نصح غراي بألا يورط نفسه في هذه المسألة، وها هو الآن يرغي ويزبد، وينفث نار الغضب حول ما يتوقعه من ردات فعل. أحياناً لا ينفع أن تخدمي الناس. والله يعلم أن على غراي أن

يتعلم هذا. إنه صاحب قلب رقيق.

انهت مدبرة المنزل وضع الصحون والفناجين وأدوات الطعام في الغسالة الكهربائية وضغطت الزر، ثم وقفت مبتسمة:

ـ حسناً سيدة فولوود.. لقد تركت لك طعاماً بارداً في البراد.. فالسيد فولوود سيتعشى الليلة مع محافظ هذه المنطقة... وسأذهب الآن الى المنزل إذا سمحت لي. هناك فيلم رائع سأشاهده وزوجي.

ـ أرجوك اذهبي... أنت تعملين ساعات طويلة.

ـ لكنني اقبض أجر الساعات الاضافية دوماً.

اخرجت إميلي بطاقتها الممغنطة، وانتعلت زوجاً من الاحذية المطاطية الواقية فوق حذائها، ودفعت البطاقة في آلة القفل الكهربائية. صدر عن الآلة صوت رنين خفيف، ثم انفتحت الاقفال فدفعت الباب تفتحه ثم وضعت البطاقة في جيبها وسألت:

ـ أتسمحين باقفال الباب سيدة فولوود؟

ـ أجل.. بكل تأكيد.

لوحت إميلي لسندي.

ـ ليلة سعيدة لك ولأمك. أراكما في الغد.

فردت سندي:

ـ باي.. باي باي «لي».

ما إن اختفت مدبرة المنزل عن الانظار حتى سارعت كايت الى وضع طفلتها على الارض وزودتها بوعاء بلاستيكي وملعقة بلاستيكية لتلعب بهما. نظرت عبر المطبخ، فإذا رائحة التبغ تتعالى مع اصوات نقاش حاد يأتي من خلف باب المكتب الموصد. أخرجت مجموعة من كتب الطبخ من الادراج قرب

الفرن وفتشتها جيداً فإذا بها أمام زوج من البطاقات الممغنطة.

أحست بالذنب وكأنها تسرق ثروة عائلية ثمينة. ودست إحدى هذه البطاقات في جيب سروالها، وهي تحس بجفاف حلقها ورطوبة في راحتي يديها. وقالت لابنتها:

ـ آن الوقت لرؤية الخالة جوانيتا قبل النوم، فهي تود أن تقرأ لك قصة.

ـ خالتي «نيتا» لطيفة. هنا في البيت، مكان لطيف ماما.

فردت على مضض:

ـ أجل.. إنه مكان لطيف للسكن فيه.

ـ أنا أبقى هنا مع الرجل؟ معك؟ الى الابد والابد؟

ـ أجل حبيبتي.. أجل.. اعتقد أننا سنبقى هنا مع والدك فترة...

ـ أوتش ماما..! أوجعت يدي!

ارخت قبضتها عن يد الطفلة:

ـ آسفة حبيبتي.. هيا، درجة واحدة بعد، اقفزي، بعدها سنكون مستعدتين لسماع قصة الخالة جوانيتا.

ازدياد تعلق سندي بـ «تشارترفارم» سبب آخر يدفعها الى الفرار من غراي في أسرع وقت ممكن. فمن الافضل للجميع أن لا تمتد جذور سندي عميقاً قبل أن تنتقل ثانية... مع ذلك فهناك حقيقة لا تستطيع نسيانها وهي أن غراي قادر على تقديم العديد من الامتيازات لابنته.

انتظرت كايت الى أن نام جميع من في المنزل، ثم بدأت توضب حقائبها.. الرحيل هو القرار الصائب... لم يستغرق توضيب ثيابها الكثير، لقد قامت بالمهمة نفسها مراراً من قبل حتى باتت قادرة على إنهائها في بضع دقائق. بعد أقل من

نصف ساعة انتهت حتى من تحضير ثياب سندي. ارتدت سروالاً اسود وكنزة سميكة ثم فتحت باب غرفتها وأرهفت السمع فإذا بها لا تسمع صوتاً أو تشعر بحركة.

كانت قد قررت الخروج من الباب الجانبي الذي يقود الى بركة السباحة، فهو في موسم الشتاء لا يستخدم اطلاقاً.

دست البطاقة التي حصلت عليها في الآلة الكهربائية، وخفق قلبها وهي تسمع الرنين الخفيف الذي تبعه انفتاح المزالج، فعادت نبضات قلبها الى طبيعتها.. أدارت بهدوء اكرة الباب وفتحته ثم خرجت الى الممر الاسمنتي الذي يلتف حول البركة ويقود الى الكاراج الذي يحتوي على السيارة التي استخدمتها يوم قصدت كامبردج.

الاراضي المحيطة بالمنزل كانت مضاءة منعاً لتسلل اللصوص، فابقت كايت نفسها في الظل قدر المستطاع.. مع أن هذا كله لا داعي إليه في الساعة الثالثة من صباح يوم كهذا.

أخفت الحقائب خلف بعض البراميل الفارغة حتى لا يكتشفها أحد سواها.. لكنها جمدت والتصقت بالجدار عندما رأت شخصاً طويلاً يمر بصمت من خلف الظل الذي تحدثه الاشجار.. ثم عرفت أن الرجل غراي... لكن موقفها صدمها، وتساءلت عما كان سيحصل لو واجهت لصاً، أو لو أن غراي نظر الى حيث تقف. لو شاهدها الآن لزال كل أمل لها بالهرب.

حين دخل غراي أخيراً الى المنزل عاد إليها تنفسها. انتظرت نصف ساعة بعد رحيله. ثم تسللت عائدة الى المنزل، ترتجف لكنها قالت لنفسها مؤنبة: واجهي الوقائع.. أنت قطعاً معدة لحياة الخطر والهرب والاختفاء الغامض.

تسللت على رؤوس اصابعها.. وكانت ترتجف من الخوف عندما مدت يدها الى اكرة بابها.

ثم سمعت غراي يسألها من خلفها:

ـ أكنت تتمشين في المنزل؟ أليس هذا نشاطاً غريباً في الثالثة صباحاً؟

التفتت تضغط نفسها على الباب وقلبها يخفق.

ـ هل أكلت القطة لسانك؟

ـ لم أستطع النوم. فنزلت الى المطبخ لأعد شراباً ساخناً.

لم يظهر على غراي ما يدل على أنه لا يصدقها.. بل سأل بخبث:

ـ شراب ساخن؟ أتشعرين بالبرد؟ ربما يجب أن ندير جهاز التدفئة مع أن الخالة جوانيتا التي تشعر بالبرد قبل الجميع لم تتذمر بعد.

دنا منها خطوات قليلة ثم توقف على مسافة غير بعيدة لا تتجاوز الستمترات.

ـ لا.. لا أشعر بالبرد. أبداً. فلا تشعل جهاز التدفئة.

ـ إذا كنت لا تشعرين بالبرد، فلماذا ترتدين هذه الكنزة السميكة إذن؟ وهذا السروال السميك. لا أصدق أنك ارتديت هذه الثياب كلها للنزول الى المطبخ فقط. إن قصتك ضعيفة.. ولولا معرفتي بأنك عاجزة عن الخروج لقلت إنك كنت تتمشين في الخارج.. لكن بالطبع ليس هناك مجال للخروج.. أليس كذلك كايت؟

ـ لا.. لا مجال.

انحنى فوقها يرفع شعرها عن وجهها ويضع خده على خدها فأحست بخشونة ذقنه على بشرتها. ثم قال بصوت أجش:

ـ رائحتك مشبعة برائحة الهواء الطلق، هواء الليل، الرياح الباردة والظلمة المخملية. أين كنت كايت؟

ـ تح.. تحت.. في.. في المطبخ.. قلت لك هذا.

ـ همم... أعرف ما قلته لي.

امتدت يده تداعب ظهرها من أعلى الى أسفل، فاغمضت عينيها تقاوم لتحافظ على السيطرة على أحاسيسها.. يجب أن توقفه عن طرح الاسئلة! ما دام لا يملك دليلاً عن مكان وجودها، فستبقى حقائبها مخبأة كما هي في الكاراج. وإذا بقيت الحقائب هكذا فسيكون لديها فرصة لابأس بها للهرب... لكن دون حقائبها ستبقى سجينة وابنتها في «تشارترفارم».

قبل أن يتمكن من ملاحقة تفاصيل قصتها أكثر، اجبرت نفسها على رفع عينيها إليه... ومررت اصابعها على فمه تتعمد إغواءه:

ـ قد تكون رائحتي مشبعة برائحة الهواء الطلق، لكن رائحتك ملؤها السكائر.. أم أنني اتخيل هذا؟ لم تكن معتاداً على التدخين من قبل.

ـ أنت محقة، لكنني بدأت التدخين منذ هجرتني.

راح يقبل أناملها، فتأخرت في ادراك أنها قد حركت أكثر مما كانت تنوي، فحين حاولت التحرك مبتعدة أمسك بيدها ليقبل راحتها ويقول:

ـ لقد اكتشفت أن الاحباط يجعل المرء يقوم بعادات لا يرغب فيها حقاً.

ـ لكن التدخين مضر بصحتك. ويجب أن تقلع عنه قبل أن تدمن عليه.

ـ أنت محقة يا مستشارتي.. اعتقد أنه بعد عودتك سيخف احباطي... ومن يعلم، يا مستشارتي! قد أتمكن من الخلاص من التدخين دون صعوبة.

استندت الى الباب تبتلع ريقها بصعوبة:

ـ ربما.

اخفض غراي يديه الى كتفيها حيث راح يدلكهما برقة... فذاب كل تفكير منطقي، وتركت لمشاعرها العنان لتستولي على كل شيء. لكن اصابعه توقفت فجأة:

ـ كايت.. ما الامر؟ لقد شحبت شحوب الاموات.. هل أنت بخير؟

اغمضت عينيها تفكر: لا.. لست بخير... فأنا في اسوأ مأزق وقعت فيه منذ سنتين.

ثم فتحت عينيها وأجبرت نفسها على النظر إليه:

ـ أنا بخير.. رائعة.. عظيمة.

فتمتم:

ـ لكنني أنا لست هكذا. دعيني اضمك كايت... دعيني أكون معك... على الاقل الليلة؟

كان صوته هامساً وهو يمسك بكتفيها، ثم رفع يديه يحيط وجهها، ويهمس باسمها وينحني لتقبيلها.

وكأنه كان يعطيها فرصة أخيرة للانسحاب ولرفض الحلاوة التي يشعران بها معاً. لكن الوقت تأخر على المقاومة وعلى كل منطق. فقد كانت كل مشاعرها تصرخ له حتى قبل أن يأخذها الى فراشه منذ ثلاثة أيام.

ارتفعت يداها تطوقان عنقه، فإذا بها تحسه يرتجف تحت ذراعيها.. اختبرت لحظات من السعادة التامة وهي تعلم أنها قد

تكون الوحيدة التي يستجيب لها على هذا النحو.

ضغطت اكرة الباب على ظهرها فآلمتها، لكنها لم تكد تحس بها. وهمست باسمه، ثم احست بالاحباط عندما ابتعد عنها قائلاً:

ـ لا نستطيع البقاء هنا.. فلندخل الى غرفتك.

وحملها بين ذراعيه، فتح بابها ثم دخلا.. عندما انزلها الى السرير الضيق كانت قد وصلت الى مرحلة الجنون شوقاً إليه.

في مكان ما، مدفون تحت طبقات الوعي، كانت تعلم أنها ستندم على كل ما ستفعله الليلة. لكن عندما لمسها ثانية، ذابت.. نسيت كل شيء إلا وجودها معه. فتركت موجات العاطفة الحارة تتحكم في سعادتها التي ظنت أنها دون نهاية.

* * *

عبدالوفاء سودد

عبدالوفاء سودد

٨ ـ هروب بلا حدود

سمعت كايت صوت اقفال الباب، فتحت عينيها فإذا هي وحدها. نور الساعة الاحمر أشار الى السادسة والنصف صباحاً، أي قبل نصف ساعة من موعد استيقاظ سندي. استحسنت عمل غراي لأنه لو لم يفعل لكانا استيقظا على سندي وهي تقفز عليهما وتسأل دون شك اسئلة مربكة بين كل قفزة واخرى.

جلست مستقيمة في الفراش، تجر الأغطية معها. يا الله ماذا جرى لرجاحة عقلها هذا الصباح؟ ماذا فعلت؟ كيف لها أن تكون مجنونة فتفكر أنها قادرة على إغواء زوجها وعلى البقاء سالمة؟ نعم، هي نجحت في ايقاف تدفق اسئلته، لكن الثمن قد يثبت أنه مرتفع ولا يحتمل، خاصة بعد أن تذكرت كيف تكون السعادة بين ذراعيه، أيمكن لها بعد ذلك تقبل الحياة دونه؟

اعصار صغير مدمر حط فوق السرير، يوقف تدفق افكارها.

ـ أنا هنا ماما. وأنا مرتدية ثيابي.

مدت ذراعيها لتعرض كنزة مقلوبة على قفاها ارتدتها فوق البيجاما. وسألت وكلها أمل:

ـ هل أنا فتاة طيبة؟

ـ أنت فتاة طيبة جداً. اذهبي والعبي بمكعباتك خمس دقائق حبيبتي، حتى استحم. ثم ننزل معاً لأحضر لك فطورك.

كان تفكير كايت قد استقر حين نزلت مع سندي الى المطبخ حيث وجدت غراي يجلس هناك، يأكل «الكورن فليكس» ويتحدث الى إميلي يمرح. لم ترَ ما يدل على قلة نومه إلا ظلاً أسود تحت عينيه.

فالتفتت سندي بين ذراعي أمها:

ـ مرحباً يا رجل.

ونظرت الى التلفزيون:

ـ ذهبت أمس.. لكنك عدت الى البيت اليوم.

فضحك غراي:

ـ لست أدري ما تعنين، لكن أظن أنني مسرور. لقد اشتقت إليك بالامس، يا حلوتي... هل امضيت وقتاً طيباً؟ الخالة جوانيتا قالت إنك وأمك وجدتما سرطاناً عند الشاطىء.

تسلقت سندي الكرسي الى جانب غراي:

ـ أنا أكبر منك يا رجل.

فكرتها عن الحديث لم تكن تشمل دائماً الاجابة عن اسئلة الآخرين والسرطان الذي شاهدته بالامس لم يعد يثير اهتمامها.

نظر إليها غراي، ثم قال:

ـ لا.. أنت لست كبيرة مثلي.. لكنني توقفت عن النمو، أما أنت فلم تبدئي بعد. يوماً ما أتوقع أن أجدك كأمك، وهي امرأة طويلة بالنسبة للنساء.

ـ ماما كبيرة. ماما أكبر منك يا رجل.

تدخلت كايت، فرفعت سندي الى كرسيها المرتفع الخاص واعطتها قصعة الحليب والحبوب المذابة فيه:

ـ حان وقت الطعام. لن تكبري إذا لم تأكلي طعامك.

وانكبت سندي على «الكورن فليكس» تستخدم اصابعها في

تناوله أكثر مما تستخدم الملعقة. والتفت غراي الى كايت:

ـ ألن تتناولي الطعام هذا الصباح؟

ـ شكراً، لكنني لست معتادة على الطعام الباكر.. سأتناول القهوة فقط.

ـ كنت آمل أن تنضمي إليّ مع سندي اليوم... فسألقي محاضرة في كلية حرس السواحل الحربية في «بورتسموث» حيث القاعدة البحرية الرئيسية. وظننت أنه بامكانكما المجيء معي. ولسوف تسعد سندي بالاستعراض والموسيقى العسكرية.

قاومت كايت الحث غير المنطقي الذي تملكها لقبول دعوته.. لكنها علمت أنها لو كانت جادة في خطتها للهرب، فمن الافضل أن تغتنم أية فرصة في اسرع وقت ممكن. وغيابه اليوم قد يوفر لها خير فرصة.

ردت عليه باشراق مفتعل:

ـ شكراً لتفكيرك بنا. سيسعدنا في وقت آخر مرافقتك، لكن مواعيدك اليوم ستكون مرهقة لسندي، فقدرة تحملها على التركيز والاهتمام قصيرة.

ـ مع ذلك، أود أن ترافقاني.. ألن استطيع اقناعك؟ ألديك خطط محددة اليوم كايت؟

وضعت فنجان قهوتها فوق الصحن بهدوء قدر المستطاع:

ـ في الواقع أجل. فأنا وسندي نحتاج الى ثياب جديدة قبل أن نرافقك في أي رحلة رسمية. وتطوعت خالتي جوانيتا في الجلوس مع سندي، ففكرت في الذهاب الى كامبردج لأشتري بضعة أثواب لائقة إضافة الى قمصان وبعض الاغراض الأخرى.

سادهما صمت بدا أن لا نهاية له. ثم قال غراي مبتسماً:

ـ حسناً.. بكل تأكيد، تبضعي كايت.

مد يده الى جيبه واخرج رزمة كبيرة من أوراق الاعتماد وضعها فوق طاولة المطبخ. ولم يشر بلباقة الى قسمها له منذ أيام بأنها لن تلمس ماله:

ـ اختاري ما شئت. وأرجوك اشتري عدة اثواب للخروج لئلا يكون لك عذر للبقاء في المنزل في المرة القادمة.

شدت على اسنانها، آملة أن يعزو احمرار خديها الى حرجها من طلب المال منه، لا من الاحساس بالذنب لخداعها له. تقدمت الى الطاولة وانتقت أربع بطاقات، وقالت بصوت متصلب لم تستطع منعه:

ـ شكراً لك. لن استخدم أكثر مما يجب.

فرد بنعومة:

ـ اعرف هذا.. فلا تقلقي، فأنا أعرف تماماً شعورك بشأن صرفك مالي. سأجعل اندرو يتصل بالمخازن ليعلمهم أن لك الحق بالتوقيع على الفواتير.

ـ هل لك أن تعطيني مفاتيح سيارة، من الافضل أن اخرج باكراً كي استطيع انهاء تبضعي بارتياح اليوم.

ـ لكن معظم المخازن لاتفتح ابوابها قبل الساعة العاشرة. خذي المفاتيح من اندرو. فهو دائماً يسجل خروج ودخول السيارات.

انهت سندي طعامها، فقاطعتهما:

ـ أنا كبيرة الآن.. انظر يا رجل.. لقد نموت.

فتفرس غراي بابنته متجهماً:

ـ لا استطيع أن أصدق.. ولكن يبدو فعلاً أنك كبرت.

فضحكت كايت:

ـ هذا لكثرة ما لوثت وجهها بالحليب، الساعة لم تتجاوز

السابعة والنصف وهذه المرة الثانية التي اغير فيها ملابسها.

ـ وهل لديك ملابس لتغيري لها؟

ـ أجل طبعاً.. ماذا تعني؟

ـ لا شيء محدد. وماذا يمكن أن أعني؟ اتعلمين تبدين لي متوترة هذا الصباح.. أثمة ما يزعجك؟

ـ لا شيء.. وماذا قد يزعجني؟

انتظرت كايت ساعة قبل أن تطلب من اندرو مفاتيح سيارة. كان صوت غراي مسموعاً من مكتبه.. لكنها لم تتوقع منه الخروج باكراً، ولم يقلقها وجوده. فهي تعرف أين ستختبىء منتظرة حتى يخرج الى موعده في «بورتسموث» وسألها اندرو وهو يعطيها مفاتيح سيارة يابانية مستوردة.

ـ أتنوين الرحيل حالاً سيدة فولوود؟

ـ أجل إذا كانت السيارة جاهزة.

ـ إنها مركونة في مكانها في الكاراج.

ـ إذن كن لطيفاً وافتح لي الباب الامامي.

فتنحنح اندرو:

ـ آه.. أنا آسف سيدتي، لكن من واجبي أن أسأل، أين سندي؟

ـ مع خالتها الكبيرة، لا تقلق.. عليك الامان في فتح الباب لي.

فاخرج بطاقة بنية اللون من جيبه واسرع الى الباب معتذراً:

ـ آسف لهذا سيدتي، لكن يجب أن تفهمي وجهة نظر غراي، لقد خسر سنتين من عمر ابنته ولا يرغب في مزيد من الخسارة.

ـ أفهم وجهة نظره بوضوح، لكن ليته يفهم وجهة نظري.

أعتقد أنني سأعود حوالي الرابعة.

ـ يومك سعيد سيدتي. وارجوك فكري ثانية في مشاعر غراي تجاه ابنته.

قادت كايت السيارة نصف ميل تقريباً ثم انحرفت الى طريق ضيق غير معبد، محفوف بالاشواك والعشب المرتفع لقلة الاستخدام. ووقفت في مكان خفي عن الانظار، ثم تسللت الى مكان تستره عن الطريق العام بعض أشجار الصنوبر الصغيرة.

انتظرت أقل من ربع ساعة، ثم شاهدت سيارة غراي المألوفة تمر بها، كان يرافقه اندرو ورجل آخر لا تعرفه. راقبت السيارة الى أن اختفت عن الانظار، ثم رجعت مسرعة الى سيارتها، تقصد المنزل فوراً. دخلت من المدخل الخلفي وتوقفت قرب الكاراج، ثم ابعدت البراميل، واستعادت حقائبها ووضعتها في صندوق السيارة.. ها هي الآن الساعة التاسعة والنصف، وهذا يعني أن أمامها ساعات تستطيع خلالها حث سيرها بعيداً بحيث لا يستطيع أحد اللحاق بها.

فتحت البوابة بواسطة البطاقة.. وكان من حسن حظها أنها لم تجد أحداً من الخدم في الردهة، فكلما قلّ عدد من يعرف عودتها كلما زادت فرصتها في النجاح.

كانت جوانيتا تقرأ قصة لسندي التي صاحت:

ـ مرحباً أمي.

وركضت نحوها تعانق ساقيها، فتعجبت جوانيتا:

ـ مرحباً.. هذا أسرع تسوق عرفته في حياتي.

ـ أوه.. لم أبدأ رحلتي بعد.. تصوري غبائي وصلت الى الطريق العام قبل أن اتذكر أنني نسيت أخذ بطاقات الاعتماد.. على كل الاحوال لقد أخذتها الآن ومن الافضل أن أذهب

مجدداً.

ـ لم أسمع جرس الباب لدى دخولك.

ـ لقد شاهدتني إميلي وادخلتني.

سارعت سندي تقول:

ـ أنا عطشى.. هل لي أن اشرب؟

ـ طبعاً يا حبيبتي.

وأطلقت كايت تنهيدة ارتياح لأنها لم تضطر الى اختلاق عذر لأخذ سندي، لكن ما زالت تحتاج الى كل ذرة من مقدرتها على التمثيل:

ـ أتودين النزول معي الى المطبخ.. سنتناول معاً كوباً من عصير التفاح قبل أن اخرج ثانية.

قالت جوانيتا:

ـ سأسقيها بنفسي إذا كنت على عجل.

فابتسمت:

ـ ستكون معك طوال اليوم. ومن الافضل أن أتأخر بضع دقائق لأتأكد من أنها شربت العصير دون سكبه على الارض، أليس كذلك سندي؟

ـ ستحتاجين لمن يخرجك من البيت كايت!

ـ ما من مشكلة.. سأطلب هذا من إميلي.

حملت كايت ابنتها الى الطابق الارضي، تقاوم اندفاعاً في الركض هاربة. عندما وصلت الى الردهة، وقفت لحظات تصغي بحذر. الخالة جوانيتا مازالت في غرفة الطفلة، وإميلي في المطبخ، وعاملة التنظيف تنظف غرفة الطعام بالمكنسة الكهربائية. ستمضي نصف ساعة قبل أن تنزل الخالة لتفتش عن سندي، وبما أن غراى لن يصل الى «بورتسموث» قبل الظهر،

فسيكون أمامها بضع ساعات قبل أن يعلم بما حدث.

وضعت البطاقة الممغنطة في الباب الجانبي، وسمعت تكتكة الاقفال.. فسألتها سندي بصوت مرتفع:

ـ الى أين سنذهب؟ أين العصير؟

ـ هس.

اطبقت يدها فوق فم الطفلة وفتحت الباب.. كان الممر الى الكاراج فارغاً، فشكرت الله لعدم وجود عمال الحدائق في مثل هذا الوقت من السنة! أسرعت الى السيارة.. ربطت سندي الى المقعد الخلفي بحزام الامان واصابعها ترتجف.

ـ الى أين ماما. أين دبي؟ أين الرجل؟ أريد دبي ماما...

وأجهشت بالبكاء:

ـ أريد العصير! أريد الرجل!

أحست كايت بمعدتها تنقبض من الالم. لكنها أجبرت نفسها على تجاهل بكاء ابنتها وقادت السيارة بسرعة نحو الطريق العام.. كانت تخطط لقطع حدود المقاطعة باتجاه الشمال وصولاً الى مدينة ليدز في «وست يوركشاير» ثم بعدها قد تعود الى ليڤربول وتسافر بحراً الى ايرلندا حيث ستحاول إيجاد عمل لها في بلدة بعيدة عن عاصمتها بلفاست.

توقفت في طريقها مرة واحدة عند محطة وقود مزدحمة على بعد خمسة عشر ميلاً من «تشارترفارم». وضعت بعض النقود في الماكينة واشترت لسندي علبة عصير.. لكن العصير لم يوقف دموع الصغيرة التي افتقدت الدب.. لكن بعد قليل من الاقناع تكورت في المقعد الخلفي وهي مربوطة لتخلد الى النوم.

كانت كايت على بعد ستة أميال عن حدود «وست يوركشاير» عندما لمحت سيارة شرطة خلفها لم تكن تبعد عنها

إلا ميلين لكنها كانت تسير على الخط السريع من الطريق العام مجتازة المسافة بينهما بسرعة. أضيئت أضواؤها الأمامية، وأنوارها الملونة الخاصة بسيارات الشرطة. نظرت الى لوحة المسافات عندها، فوجدت أنها تسير بسرعة عشرين ميلاً في الساعة وهذا يعني أنها لا تخالف قوانين السرعة مما لا يلفت انظار الشرطة.

اقنعت نفسها: لا يصيبك الذعر! سيارات الشرطة تقوم عادة بدوريات على الطرقات العامة الطويلة.. قاومت رغبة في أن تضغط على دواسة السرعة.. لكن كان آخر شيء تريده أن تعطي الشرطة عذراً للحاق بها.

لمع الضوء الاحمر بقوة زائدة، وتعالى صوت صفارة الانذار، وشاهدت السيارة خلفها تبطيء سرعتها وتتوقف على جانب الطريق لتعطي سيارة الشرطة فرصة المرور. ها قد أصبحت الآن على بعد لا يزيد عن الاربعمئة يارد، مما مكنها من رؤية السائق وحده.

رفعت كايت رجلها عن دواسة السرعة وانحرفت بالسيارة الى جانب الطريق غير المعبدة، فانحرفت سيارة الشرطة بسرعة أمامها. وخرج الشرطي منها متقدماً نحوها ببطء.

لكن كايت لم تلحظ الشرطي كثيراً، بل وقع نظرها على الرجل الآخر الذي كان ينزل لتوه من السيارة.. إنه غراي.. إنه يبعد خمسة عشر يارداً عنها، مع ذلك استطاعت أن ترى الغضب الاسود في عينيه، وأن تسمع تحطم الحصى تحت وقع اقدامه الحانقة...

استجمعت كل ذرة مما تبقى لها من شجاعة، ونظرت إليه بتحدية... لكنه تجاوزها وفتح الباب الخلفي، متجاهلاً

وجودها، ونظر الى ابنته ثم فك حزام الامان من حولها وحملها بين ذراعيه.

استيقظت الطفلة حالما شعرت بالهواء البارد فصاحت:

ـ بابا...! بابا...! أنت هنا!

تسمّر غراي في مكانه لحظات قبل أن تلتف ذراعاه بقوة حول جسد ابنته الصغير. وأحنى رأسه على رأسها:

ـ مرحباً حلوتي.. كيف حالك؟

ـ أين دبي، أنعود الى البيت لأرى دبي؟

ـ بكل تأكيد يا حلوتي. ولهذا جئت الى هنا. جئت لأعيدك الى منزلك!

راحت سندي تتلوى بين يديه وهي تنظر الى أمها:

ـ بابا هنا.. آن وقت العودة الى البيت.

فلعقت كايت شفتيها.

ـ أجل.. أرى أن أباك هنا:

وتحدث الشرطي للمرة الأولى قائلاً:

ـ أنا السارجنت دورلي سيدة فولوود.. هل لك أن تخرجي من السيارة.

اطاعته كايت، فتابع:

ـ سيدة فولوود، أعرف أنك محامية، وأعرف أنك تعرفين أن الخطف جريمة. زوجك أخذ أمراً من المحكمة يمنعك من نقل ابنتك خارج منزله، وخارج مدينة «كامبردج شاير» وهذا الطريق والاتجاه لا يوصلان إلا الى خارج المدينة. ولو تجاوزت الخط الفاصل لكنت عرضت نفسك للملاحقة القانونية بتهمة تحدي أمر المحكمة.

ـ لقد حصل على ذلك الامر بادعاءات مزورة.

ـ أنا لا أعرف كل شيء عن القانون في هذه المسألة.. كل ما أعرفه أن وضعك كان يمكن أن يكون أسوأ لو تأخرنا عنك بضع دقائق. وسرعتنا نحوك كانت بطلب من زوجك، وهذا كرم أخلاق منه. كان يستطيع الاتصال بزميل خارج حدود المدينة لايقافك ولكانت الشرطة عندها اعتقلتك هناك.

ونظر الى سندي:

ـ لديكما فتاة جميلة... لذا انصحكما أن تجدا وسيلة أفضل من هذه لحل مشكلة القضاء. فلا يعقل أن تلاحقا بعضكما على الطرقات العامة.

مد غراي يده يصافح رجل الامن:

ـ أشكرك سارجنت دورلي، وأوافقك الرأي وأقبل نصيحتك. وأرجو أن أصل وزوجتي الى اتفاق في المستقبل.

فاحنى السارجنت رأسه يحييه:

ـ سرتني مساعدتك، لقد قمت سيدي بعمل رائع في انقاذ الطلاب في افريقيا، فأنا وزوجتي لدينا ابن في الجامعة نفسها ونعرف تماماً كيف كنا سنشعر لو كان هو أحدهم.

ـ أظن الصحافة بالغت في دوري في العملية.

ـ أشك في هذا، كل من في دائرة الشرطة يقدّر لك جهودك، يقدّر لك رفضك للدعاية. وكلنا أمل أن تتقدم لمنصب مجلس اللوردات.

ـ شكراً لك سارجنت.

شدت سندي على يد غراي:

ـ أشعر بالبرد.. أنا وأمي نريد العودة الى البيت.

عاد الشرطي الى سيارته بسرعة بينما أعاد غراي ابنته الى السيارة، ثم استقام وتكلم مع كايت لأول مرة منذ لحق بها

وأشار برأسه الى المقعد الامامي:

ـ ادخلي.. وإذا كنت ذكية، فلا تتفوهي بكلمة.

* * *

عبدالوفاء سودي

عبدالوفاء سودي

٩ ـ أرجوك أحبني

كان اندرو مالفود، الخالة جوانيتا ومدبرة المنزل، ينتظرون وصولهم قلقين في الردهة حين دخل غراي المنزل تلحق به كايت. حيا الجميع سندي بالعناق والتقبيل وصيحات الفرح، بينما لم يوجه أحدهم نظره الى كايت.

قالت جوانيتا وهي تحتضن سندي وتمطرها بالقبل:

ـ أشكر الله لأنك لحقت بهما! ما كنت لأسامح نفسي لو فقدت طفلتك ثانية.

أجابها غراي بهدوء:

ـ قلت لك لا تلومي نفسك. عرفت ما تخطط له كايت. وأتحمل المسؤولية كاملة عما حدث.

رفعت كايت رأسها بحدة وهمست:

ـ كنت تعرف؟

ـ طبعاً.. راقبتك تخبئين الحقائب في الكاراج. حتى لولا مشاهدتي لك لعرفت، فقد فضحت نفسك هذا الصباح حين قلت إنك خارجة للتسوق وقبلت مني بطاقات الاعتماد.. وكانت هذه غلطة سيئة يا كايت... فكلانا يعرف أنك تفضلين ارتداء مهملات المحلات على أن تصرفي جنيهاً من مالي لشراء ملابس جديدة.

ـ ما دمت تعلم، فلماذا لم تردعني؟

فرد ساخراً:

ـ لنقل إنني تركتك عن قصد تحاولين الفرار.

ـ تعمدت إذن الايقاع بي.. لم تشأ السفر أبداً الى «بورتسموث» أليس كذلك؟

ـ لا.. على الاقل ليس اليوم... فالاحتفال سيقام قبل عيد الميلاد بأسبوع.

قررت سندي أنها سئمت من هذا الحديث:

ـ انزلني بابا... أريد أن ألعب.

فصاحت مدبرة المنزل:

ـ تعلمت إذن قول بابا.. هذه خطوة في الطريق الصحيح يا سيدتي الصغيرة.

مدت سندي يدها لتصافح اندرو:

ـ مرحباً «فود»! أنا في البيت.

ـ كيف حالك يا سيدتي الصغيرة؟ يا إلهي ما أسعدني بعودتك.

ـ أنا كبيرة ولست صغيرة.

ـ أنت تكبرين طوال الوقت.

وقالت مدبرة المنزل:

ـ احزري سندي ما لديّ في البراد؟ لدي بعض الآيس كريم.

التفتت سندي الى أمها:

ـ آيس كريم لذيذ. ماما أتريدين بعضاً منه؟

التفتت ثلاثة ازواج من العيون نحوها، بينما تجنب غراي النظر إليها، وانحنى ليكلم سندي:

ـ أنا وأمك ليس لدينا الوقت لتناول الآيس كريم.. علينا أن نخرج حبيبتي... سنخرج في نزهة بالسيارة ولن نعود الليلة الى البيت. لكننا سنعود قريبا.. أعدك.

تكوز فم سندي الى الامام، والتفتت من غراي لتركض نحو أمها وتحضن ساقيها:

ـ ماما.. لا أريدك أن تذهبي! ابقي معي!

فقالت كايت:

ـ حبيبتي.. لا تقلقي أنا لن...

فقاطعها غراي:

ـ ستعود امك قريباً.. لن نذهب بعيداً وسنتصل بك الليلة. أتعرفين ماذا سنفعل؟ سنشتري صديقاً جديداً لدبك.. سنجد له دبة ترتدي فستاناً يشبه سترته الجميلة.

ـ أين دبي؟ خالتي «نيتا» هل دبي عندك؟

ـ إنه ينتظرك في غرفتك، وسيكون سعيداً برؤيتك.

انحنى غراي يقبل ابنته:

ـ اذهبي مع إميلي لتناول الآيس كريم.

انحنت كايت بدورها مكرهة لتقبل ابنتها:

ـ سأراك قريباً سندي.

أقسمت في نفسها على تنفيذ وعدها مهما خطط غراي. وحاولت أن تبدو هادئة وهي تعطي بعض التعليمات لمدبرة المنزل:

ـ سندي حساسة ضد التوت البري، والكثير من الشوكولا يؤذي معدتها.

فهزت مدبرة المنزل رأسها وهي تبدو اليوم غير ودودة، متجهمة:

ـ حسناً سيدة فولوود.. معظم الاطفال هكذا. ثقي بعنايتي بابنة السيد فولوود الذي يعرف أنني خبيرة في الوجبات المخصصة للأطفال.

انتظر اندرو مالفود خروج الطفلة والمربية، والتفت الى غراي:

ـ غراي.. اتصل مدير الشرطة، يريد معرفة ما إذا كنت ستقدم شكوى ضد... ما حصل اليوم. فالسارجنت دورلي يود اقفال تقريره.

ـ لم أقرر بعد إذا كنت سأقدم شكوى أم لا.. سأتصل به حالما اقرر.

ـ حسناً.. سأتصل به. هناك أيضاً مدير القناة الاولى في تلفزيون البي بي سي. شخص ما في الحكومة سرّب له معلومات مفادها أن رئيس الحكومة سيكلفك برئاسة وفد الى زامبيا للتفاوض مع الجنرال ماغومبا بعد توليه السلطة. وحتى الآن استطعت منعهم من ارسال مندوبين مع جهاز ارسال صغير للمرابطة أمام المنزل.

ـ عمل رائع.. ابذل جهدك لابعادهم عني اندرو، فلا أريد مراسلي تلفزيون حول المنزل الى أن تعتاد سندي على حياتها هنا.

ـ سأبذل جهدي، لكن هل أؤكد أو أنفي القصة؟

ـ قل إن أي اعلان بهذا الخصوص يجب أن يصدر من رئاسة الحكومة.

ـ عظيم. أين ستكون موجوداً إن احتجت للاتصال بك؟

ـ أنا ذاهب الى المنزل الريفي.

ـ لن اتصل بك إلا في حالات طارئة.

حاولت كايت التحرك نحو الباب الامامي، لكن ذراع غراي أحاطت بخصرها ليثبتها الى جانبه. وسأله اندرو:

ـ كم ستغيب؟

ـ لست واثقاً، ربما يومين أو أكثر. سأتصل الليلة حوالي السابعة قبل أن تنام سندي.

انتظرت كايت الى أن اصبحا في الخارج لتقول:

ـ اعتقد أنه من غير المجدي رفضي مرافقتك.

ـ لا ليس غير مجدٍ... لك حرية الرفض، فإذا اردت الرحيل أرجوك.. ارحلي واحملي حقائبك واذهبي.

ـ أنت تعلم أنني لن أذهب دون سندي.

ـ إذن.. إن لم تقبلي الذهاب معي، فسأقدم شكوى الخطف ضدك. ولديّ دزينة من الشهود، بمن فيهم الشرطي.

ـ ألهذا تركتني أفعل ما فعلت هذا الصباح؟.. لقد كنت بلهاء اعطيتك سلاحاً تبتزني به.

ـ هذا جزء من السبب. أما الجهة الاخرى، فالواقع أنني كنت آمل أن أستطيع الثقة بك، رغم الدلائل المعاكسة. لكن كان يجب أن أعرف، فلا شيء فعلته في السنتين والنصف الماضيتين جعلني أثق بك.

فبدأت تضحك وقد بدا أنه من المستحيل كبحها، ثم شهقت:

ـ لا تستطيع الثقة بي؟ يا إلهي.. أظن هذا مضحكاً.

لم يزعج غراي نفسه في الاستفسار عن المعنى بل جرها نحو سيارة الجاكوار، ثم سار بسرعة نحو مقعد السائق... الى أن وصل الى الطريق العام، كانت قهقهاتها قد تحولت الى بكاء، وما إن وصل الى الطريق الدولي حتى تحول الى نحيب.

اعطاها منديلاً تمسح به دموعها وقال بكل برود:

ـ فكري قبل أن تقرري عدم التعاون معي.. لقد انتظرت سنتين ونصف لأعرف السبب الذي جعلك تفرين، وبعد حادثة الخطف اليوم لن انتظر وقتاً آخر. أريد اجوبة، وهذه المرة ستعطيني الاجابة مهما كانت الوسيلة.

انعطف بالسيارة غرباً باتجاه «بارموث».. كان المنزل الريفي الذي يقصدانه يقع على الخط الساحلي على بحر الشمال، في منطقة مهجورة.

ماذا يخطط يا ترى؟ ماذا ستفعل لو طلب منها الرد قبل أن يسمح لها برؤية سندي ثانية؟ هل ستذكر له سبب فرارها منه في تلك الصيفية منذ ما يزيد عن السنتين؟ هل تخاطر وتبوح له بأنها تعرف أنه كان على علاقة مع شركة المقاولات المتحدة وعن الرشاوي وأنه قبل منها رشوة؟ وماذا سيفعل عندما يعرف أنها تعرف كل شيء عن نشاطاته الاجرامية؟ ماذا سيفعل عندها كل منهما؟ وهل سيدفعها شرفها وكرامتها لتبلغ عنه، وهل سيحاول منعها؟

فجأة قطع صوته حبل تفكيرها:

ـ لقد وصلنا.

أوقف السيارة أمام منزل ريفي خشبي الجدران أبيض اللون.

ـ انتظري في السيارة لأنزل الحقائب.

الهواء داخل «الكوخ» كان بارداً خاصة بعد دفء السيارة. وضع غراي الحقائب عند اسفل السلم:

ـ لن يطول الوقت بنا حتى يصبح المكان دافئاً.. أنا أقصد الكوخ كلما سنحت لي الفرصة لأريح اعصابي، لذلك يبقى

ذاخراً بما احتاج إليه، تاركاً فيه التدفئة المركزية على حرارة منخفضة.

ـ لا أشعر بالبرد.. أتسمح بأن ترشدني الى الحمام؟

ـ إنه في الاعلى قرب غرفة النوم. ليس في الطابق الارضي إلا هذه الغرفة والمطبخ. وهناك غرفة اخرى مليئة بالاشياء المهملة في الخلف. هل أحمل حقيبتك الى الاعلى؟

ـ لا تزعج نفسك. استطيع تدبر أمري.

وجدت الحمام فاخراً، كذلك غرفة النوم ذات السجادة الكبيرة الممتدة من الحائط الى الحائط، حيث يقبع فوقها سرير واحد كبير الحجم دون قوائم تغطي صفوف من الازرار والمفاتيح قمته، بحيث يستطيع من ينام فيه أن يتحكم بكل ما في المنزل من ادوات تدار بالكهرباء، من انارة وتلفزيون وستيريو. واستطاعت كايت أن تلاحظ أنه مكان للاغواء أكثر منه للنوم. ولا بد أن غراي حين يتخلى عن مسؤولياته ويأتي الى هنا، تكون معه رفيقة فراش مناسبة تؤنس وحدة هذا المكان، أتراه يأتي بهن من لندن أم يجدهن محلياً؟ ما إن انهت تنظيف وترتيب نفسها حتى سارعت الى النزول فوجدت غراي يركع على الارض أمام المدفأة، تدس يداه قطعة حطب فوق كومة من أوراق الصحف... راقبته يشعل عود ثقاب ليشعل اطراف الورق. وقفزت السنة اللهب والتفت حول الحطبة، ثم استوت في شعلة ثانية تمسكت بها. وملأت الغرفة رائحة حطب الصنوبر المحترق. فضحكت ساخرة.. هي واثقة من أن غراي يتمكن من اشعال أي نار بعود ثقاب واحد! لن تستطيع أن تتذكر أنه فشل يوماً في شيء عقد العزم عليه.

وقف من جثوته لينظر إليها، ثم قال:

ـ سأغسل يداي في المطبخ. أتودين أن احضّر لك شراباً؟

ـ أرجوك. ماذا لديك؟

ـ انواع من الكولا.. مياه غازية، «دايت» وغيرها.. مع المشروبات الساخنة.

ـ مشروب ساخن لو سمحت... فنهاري كان مرهقاً.

ـ أيناسبك الشاي؟

ـ عظيم.

ـ لقد وضعت لتوي بعض الطعام البارد في الفرن للعشاء، فنحن لم نتناول الغداء. وسيكون الطعام جاهزاً بعد نصف ساعة.

إشارته الى الطعام ذكرتها بأنها لم تأكل شيئاً اليوم، مع ذلك قالت:

ـ لست جائعة.

ـ مع ذلك ستتناول العشاء معاً.

كانت الساعة الرابعة ومع ذلك راح يتلاشى ضوء النهار فبدا الشاطىء المهجور مخيفاً في عزلته. لم يكن البحر يبعد عن الكوخ سوى ثلاثين يارداً، لذا كان يُسمع هدير الامواج تتكسر بقوة راكدة على الشاطىء المليء بالحصى.

ـ كايت.. هذا شرابك.

لم تحس به يعود من المطبخ، فالتفتت بحدة فإذا هو أقرب مما توقعت، فكادت تستطيع رؤية خطوط الارهاق التي ترسم عينيه، وتشم رائحة دخان حطب الصنوبر العالق في قميصه. أصبح الصمت في الغرفة ضجيجاً مزعجاً.

وضع غراي حطبة أخرى في النار، ثم استقام والتفت ببطء نحوها. فاحست بالارتجاف عندما ادركت أن عينيه تستقران

على شفتيها:

ـ كايت... لماذا تستمرين في الهرب مني؟

حضرت نفسها لترد عليه بكل ما أوتيت من قدرة على ضبط النفس.. فسحبت نفساً عميقاً.. لكن فجأة تحولت ستتان من العذاب، والخوف والتشرد، الى غضب عنيف. فهبت على قدميها واقفة ورمت كوب شرابها الى النار فشعرت بالراحة وهي تراه يتحطم الى عشرات من الشظايا، وتسمع النار تنطفىء حيث انسكب عليها الشراب، وتحولت السنة النار من الاحمر الى الازرق الدخاني. وصاحت:

ـ لماذا استمر في الهرب؟ سأقول لك لماذا غراهام فولوود! أهرب منك لأنني لا أطيق العيش معك.. أهرب لأنني أكرهك وأكره الصفقات العفنة القذرة التي كنت تقوم بها... فليساعدني الله.. لقد هربت لأنني لم أستطع التوقف عن الرغبة فيك.

ركضت نحو الباب، لكنه لحق بها:

ـ وأنا كذلك أرغب فيك. وأحس بما تحسين به ما أن أكون معك في الغرفة نفسها.

انحنى يقبل النبضات الخافقة التي كانت ظاهرة بقوة عند صدغها وأردف:

ـ قولي لي يا كايت، أهذا ما لم تستطيعي التوقف عنه؟ لمسة فمي على بشرتك؟ أم لمسة يداي؟ أو اصابعي وهي تداعبك؟ اخبريني كايت أهذا ما لم تستطيعي التوقف عن التفكير فيه؟

امسكت يداها كتفيه، وغرزت اظافرها في لحمه لتجمع كل ذرة من ارادتها وتهمس:

ـ لا... لا تفعل هذا بي غراي.. كانت ليلة أمس غلطة

فظيعة، يجب ألا تتكرر. اتركني وشأني غراي، فليس هذا ما أريده.

ـ صحيح؟ إذن لماذا لم تبتعدي عن ذراعي؟

ـ لست أدري لماذا أحب أن تحضنني!

ـ لأنه يناسبنا كلانا.

فهمست باحتجاج وهو يغمر وجهها بالقبل، كانا يعرفان أن لا فائدة من الاحتجاج. امتدت أناملها الى عنقه، بينما أخذت يداه تداعبان عنقها، فاسودّ اللهيب في عينيه واصبح حجراً تحت رماد. وتمتم متوسلاً:

ـ لا تقاوميني كايت.. فلن تكسبي.. سأحملك الى الأريكة واداعبك الى أن تتوسلي حبي.

اغرقتها الرغبة في موجها المتلاطم، فاغمضت عينيها مستسلمة كما يستسلم الغريق عند اليأس. وانتقلت معه بسرعة الى عالم لا تحس فيه سوى بلمساته.

سمعت نفسها تقول متوسلة، كل كلمة تصدر على حدى:

ـ غراي.. لا.. تفعل.. هذا.. بي. أرجوك... لا تفعل.. لا.. تجعلني.. أريدك..

ـ لقد فات الوقت يا كايت.. ليلة أمس تذكرنا معاً مدى شوقنا الى بعضنا بعضاً. اتحسين بالرضى عندما تعرفين شدة حاجتي إليك؟ وعندما تعرفين أنني كنت أستيقظ كل صباح والالم يعصر قلبي، اشتاق لضمك؟ أتحسين بالتفوق لعلمك بأنني اتحرق لامرأة تكرهني الى حد يدفعها الى الهرب كلما دنوت منها.

ـ لا أشعر بشيء من التفوق... بالله عليك يا غراي.. عندما أكون معك لا أشعر إلا بالوهن.

ـ إذن تعالي إلي.. ودعيني اعطيك شيئاً من قوتي.

من غير المجدي أن تنكر تعلقها به في وقت يستطيع قراءة هذا في كل ذرة من كيانها فهمست:

ـ أجل.

ـ إذن قولي الكلمات. احتاج الى سماعها منك.

ـ أية كلمات؟

ـ أنت تعرفين ما هي.

فتنهدت:

ـ أنا.. أريدك غراي... أرجوك أن تجعلني أحبك.

ـ حاولي مرة أخرى يا قلبي.. لقد كدت تقولينها بطريقة صحيحة.

ـ أنا.. أحبك... أرجوك أحبني يا غراي.

لمعت عيناه بوميض انتظار لا يخطىء وحملها بقوة شتتت احساسها، ورفعتها فوق موجات الحب الابدي.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، عندما تحركت لتضع رأسها على صدره وتنام.. لكنها سرعان ما ادركت فظاعة ما قالته وما فعلته.. إنها تحب غراي.. لقد فرت بعيداً مدة سنتين ونصف، لأنها كانت تحاول يائسة أن تهرب، لا منه، بل من الحقيقة. لكنها لن تستطيع بعد اليوم تجنب الواقع... فمهما كانت اخطاؤه، فهي تحبه، تحب زوجها...

زوجها الذي طالما أحبته.. لكنها كانت خائفة من أن تبقى تحبه الى الابد!

* * *

١٠ ـ القلب نهاية المطاف

مدت كايت يدها، لكنها لم تجد إلا اغطية فراش متجعدة، وفراغاً واسعاً موحشاً. فتسارعت تمر بها الذكريات متصارعة. تدحرجت تدفن وجهها في الوسادة.

كانت اشعة الشمس تتدفق الى الغرفة، مشيرة الى أن الصباح قادم. لكنها تمنت العودة الى النوم، إذ لم تكن مستعدة بعد للاعتراف بحقيقة ما جرى الليلة مع غراي.

لكن اغماض عينيها لم يكن ذلك الدرع الفعال ضد الصور التي بقيت واضحة حية أمامها. تساءلت، كيف لها ولغراي أن يعودا بسهولة للوقوع في رتابة حياتهما الزوجية المدمرة؟ كان دائماً ينسيها مشاكلها في حمى الحب. ولم تكن الليلتان الماضيتان استثناء عن القاعدة القديمة. فهي لم تتعلم شيئاً من الاشهر الطويلة التي افترقا خلالها. فما زالت غير قادرة على مقاومته.

جلست في السرير الضخم تنظر حولها.. شيء ما في هذا الصمت المحيط بها، يشير الى أن غراي غير موجود داخل الكوخ.. وهذا أمر عادي، كان في حياتهما الماضية ويبدو أنه سيبقى، هو أنها اعتادت على الاستيقاظ دون أن تجده قربها. في الليل كان يُسكت اسئلتها بقبلاته الجائعة. وفي ضوء الصباح

كان يبتعد عنها ليمنع النقاش معها.

استحمت، ارتدت الجينز والكنزة الصوفية. ونزلت الى المطبخ.. غراي ترك لها القهوة في الابريق الكهربائي.. راحت تحتسي القهوة وهي تنظر من النافذة تخطط لما ستقوم به.

كانت الشمس بقوة نادرة في مثل هذا الوقت من تشرين الثاني، شاهدت من بعيد طيف غراي يتمشى قرب الشاطىء، فوق الحصى. فابتعدت عن النافذة، ثم حطت عيناها على شيء معدني يلمع في ضوء الشمس. إنها مفاتيح... غراي ترك مفاتيح سيارته على طاولة المطبخ.

التقطت المفاتيح وطارت الى فوق، دون أن تدرك ما تفعل. أمسكت حقيبتها فرمت فيها ثيابها بسرعة جنونية ثم حملتها تخرج بها من المنزل. كانت السيارة في المكان الذي أوقفها فيه غراي بالامس. على بعد خطوات من الشرفة المسقوفة.

لم تكن أبواب السيارة مقفلة، فرمت حقيبتها في المقعد الخلفي ودست المفتاح في قفل المحرك. وانطلقت مسرعة الى الامام غير عابئة بسحابة الغبار والحصى التي اثارتها خلفها.

لم تكن قد وصلت بعد الى تقاطع الطريق حتى خففت من سرعتها الجنونية، وأخيراً أوقفت السيارة الى جانب الطريق في فسحة خضراء. واطفأت المحرك مرتجفة، تفكر في الحماقة التي تقوم بها. كانت تصرفاتها خلال ربع الساعة الاخيرة ملأى بالخبل.. فالى أين تنوي الفرار؟ وكيف تتوقع أن تطالب بسندي؟ بل ماذا تود أن تثبت بالهرب من جديد؟ إن حقيقة، ما حصل ليلة أمس، لن يمحوها ببساطة عجزها عن مواجهة غراي في الصباح.

عبدالوفاء سودي

خرجت كايت من السيارة تستند الى مقدمتها، تجبر نفسها على أن تعيد التفكير في وضعها. . خلال فترة هروبها الطويلة فقدت على ما يبدو في مكان ما قدرتها على مواجهة مشاكلها. فقد كانت تحاول حل أي مشكلة تواجهها بالارتداد على عقبيها هاربة باسرع ما يمكنها. لكن المشكلة. . أن بعض المشاكل لا تزول بالهرب ومشكلتها أنها تحب رجلاً كان محتالاً. وهذه حقيقة ستبقى، سواء أواجهتها هنا أم أمضت حياتها كلها هاربة.

حتى ولو تمكنت، بمعجزة ما، من اختطاف سندي مرة اخرى من «تشارترفارم». . اترغب حقاً في أن تمضي بقية حياتها مختبئة في شقة مفروشة حقيرة؟

لن تتمكن أبداً لا هي ولا ابنتها من العيش بكرامة، حتى تتمكن من مواجهة غراي بكل ما تعرفه عنه.

تنفست نفساً عميقاً أخيراً من هواء البحر المنعش، وعادت الى السيارة التي قادتها بسرعة الى الاتجاه الذي قدمت منه. بعد خمس دقائق، أوقفت السيارة ودخلت الكوخ فوجدت غراي يجلس على الاريكة في غرفة الجلوس، وعلى ركبته كتاب مفتوح وفي الغرفة موسيقى هادئة تملأ جوها. . وفي المدفأة نار مستقرة تزمجر. بدت الغرفة البسيطة وكأنها ترحب بها.

رفع غراي رأسه إليها عند سماعه دخولها. شاهدت للحظة الارتياح يشع من عينيه. .

ـ تسرني رؤيتك. . . حين تركت المفاتيح على الطاولة، حسبتني لن أراك ثانية.

فردت بهدوء:

ـ لقد انتهى عهد الهروب. . وعلينا الآن أن نتحدث بصراحة.

تقدمت نحوه تدس يديها في جيبي سروالها فنهض عن الاريكة، واتجه الى النار ليحرك الجمرات والحطب المشتعل:

ـ أجل. . يجب أن نتكلم.

أدركت مذهولة أن زوجها. . السياسي الخبير الذي لا تعوزه الكلمات أبداً ولا تخونه. . كان أكثر منها اضطراباً. فقالت بصوت هادىء منخفض:

ـ غراي. . أريد أن اشرح سبب هروبي منذ سنتين.

حرك كتفيه، لكنه لم يقل شيئاً للحظات، بل وضع قضيب النار من يده بحذر مبالغ فيه والتفت يواجهها:

ـ أود من كل قلبي لو أعرف السبب.

ـ لقد هربت منك لسبب بسيط وواضح. لكن كان هناك أكثر من مشكلة في زواجنا. . فنحن مثلاً لم نجد يوماً وقتاً كافياً للحديث إذ لم نكن يوماً وحدنا إلا في الفراش. ولو عدت بالذاكرة الى الماضي لرأيت أنني لم استطع انهاء حديثاً معك يوماً. فإما أن تقاطعنا أمك، أو الهاتف، أو اندرو في رسالة مستعجلة. هذا عدا الليالي التي كانت أمك فيها تستقبل ما لا يقل عن خمسة وعشرين ضيفاً لكوكتيل أو عشاء. لم يكن لنا حياة خاصة غراي. . كانت حياتنا الزوجية ستفشل حتى دون أن أولي هاربة.

ـ أنت محقة، لكنني اعتقد أنه كان بامكانك حل هذه المشاكل. فنحن على كل حال، نحب بعضنا.

ـ أجل. . كنا نحب بعضنا يوماً.

ـ يوماً؟ هل أصبحت مشاعرنا من الماضي كايت؟ ليلة أمس قلت إنك تحبيني.

ـ قد يقول الناس اشياء كثيرة لا يريدون قولها في الوضع

الذي كنا عليه ليلة أمس.

ـ الناس ربما.. لكن لا أنت.

عقدت يديها بشدة:

ـ الزواج يحتاج الى أكثر من... من.. الرغبة ليتماسك يا غراي. نحن نتجاوب معاً.. لكن هذا لا يكفي.

ـ لكنني اعتقد أن هناك أكثر من الرغبة والتجاذب بيننا. وأظن أنه يمكننا أن نحقق مستقبلاً حسناً، لو سعينا لانجاح علاقتنا يا كايت. أقله من أجل ابنتنا... أتودين أن نجرب؟

بقيت صامتة.. فابتسم متوتراً:

ـ لقد تحسنت تصرفاتي خلال السنتين الماضيتين، وتعرفين هذا. فقد تبين لي خلال السنتين الماضيتين أنني متعصب أناني، يملك العمل عليّ كياني.. لكنني الآن ما عدت أؤمن بأن الدنيا ستقف مترددة عند محورها لو توقفت أنا عن العمل وتناولت رغيف خبز مع عائلتي.

لم تستطع مقاومة الابتسامة:

ـ لكنك مازلت تعتقد أن لندن ستغرق في نهر التايمز إذا لم تكن موجوداً فيها لمنع حدوث ذلك.

فضحك:

ـ ليس هذا صحيحاً. فأنا هنا اليوم، مع أنه يفترض أن أسافر الى زامبيا.. ألا يثبت هذا أن شخصيتي تغيرت؟

ألمها كلامه فأجفلت:

ـ ربما.

ـ كايت أرجوك، فكري في ما أطلبه منك. إذا كنت تريدين أن تمنحي حياتنا الزوجية فرصة أخرى، فأنا أضمن أن أهيء لها عوامل النجاح. في المرة الأولى لم نترك لنفسينا مجالاً للاتصال

النفسي والواقعي.. لكنني هذه المرة سأسعى الى أن نمضي وقتاً معاً.. خاصة وأن لنا ابنة، لا أريد لها إلا الاحسن.

توترت اعصابها فجأة وقد أدركت أنها لم تعد تستطيع تأجيل ذكر سبب هربها الحقيقي. وقالت:

ـ أنا لم أشرح لك الامور بعد بشكل جيد... وأنت مازلت لا تفهمني يا غراي. فأنا لم اترك البيت للأسباب التي عرضناها الآن. لم احطم زواجنا لأنك كنت أنانياً، لا تعبأ إلا بعملك، ولا لأن أمك كانت تصعب علي الحياة... بل، لأنني اكتشفت أن بعض الرسميين المحتالين رشوك ورشوا ماتيو كونسويلو بمئات الآلاف من الجنيهات.

ـ تركتني بسبب ماذا؟

أحست بيديها رطبتين من العرق، فمسحتهما بسروالها متوترة.

ـ لقد تركتك، لأنني لو بقيت، لتوجب عليّ تقديم الدليل الذي سيثبت تورطك مع شركة المقاولات المتحدة. تركتك لأنني اضطررت الى سحب أحد المخبرين من القضية لأحميك. لكن ضميري لم يطاوعني أكثر.

ـ هربت كي تحميني...

وضغط باصابعه على جبينه مفكراً:

ـ رحلت في السادس عشر من تموز.. تباً...! دعيني أفكر! ما الذي اكتشفته بشأني وبشأن ماتيو؟ ماذا حدث في السادس عشر من تموز بالله عليك؟

ـ دعني أنشّط ذاكرتك. لقد اجتمعت في مطعم بسيط لتناقش شروط مساعدتك لجماعة الشركة المتحدة في نقل نشاطهم الى لندن... وإن نسيت فأذكرك بأنك اقترحت ربح

مليون جنيه ثمناً لخدماتك. لقد بعت مواطنيك بثمن بخس... ربع مليون جنيه لتسهيل الفساد في بلادك.

شحب وجه غراي وهو يسألها:

ـ كيف توصلت الى هذه المعلومات كلها بالله عليك؟

لم ينكر.. أحست بالدموع تتجمع في بركة عميقة خلف مآقيها. لكنها اجبرت نفسها على متابعة القصة المؤلمة:

ـ توصلت إليها تحقيقاتي التي قمت بها بشأن فساد العم ماتيو.. لكنني تلقيت أمراً من المدعي العام لأتنحى عن القضية. أما المباحث المحلية فتابعت التحقيق، وزرعت عميلاً مستتراً في مكتب العم ماتيو.. اتصل بي المخبر مايسون في الاسبوع الثاني من تموز ليقول لي إن لديه دليلاً ثابتاً على ان «الرئيس الكبير» من لندن سيجتمع مع جماعة الشركة المتحدة لبحث شروطه. وبطريقة ما غراي عرفت أنك أنت «الرئيس الكبير».

فضحك ضحكة غريبة قصيرة:

ـ هكذا إذن. انك اثبت أنني النذل المشارك في الفساد، حتى قبل كشف ما تسميه الدليل.

فاغمضت عينيها متألمة:

ـ كنت آمل أن يكون شخصاً آخر. أوه يا إلهي.. غراي، أتظنني لم أدعُ الله حتى لا تكون أنت؟

ـ لمَ الدعاء..؟ أظننتني بحاجة الى معجزة لأكون بريئاً؟ إن رأيك بي لا يسرّ النفس أبداً.

ـ الدلائل كلها أشارت إليك.

ـ من وجهة نظرك، اعتقد أن هذا صحيح. الدلائل كلها أشارت إليّ. مع ذلك لم تسلمي ملفاتك.. حتى بعد أن تأكدت

أسوأ مخاوفك... لم تبلغي المدعي العام بما اكتشفت... لقد كنت في ذلك المطعم، وسمعتني اتفاوض على ذاك المبلغ ومع ذلك لم تبلغي أحداً.

اصطبغت وجنتاها خجلاً، واحساساً بالخزي والعار:

ـ لا... لا... لم أقل للمدعي العام ما اكتشفته.. لقد تخليت عن مبادئي التي أؤمن بها بتركي «تشارترفارم» دون أن ابلغ أحداً ما اعرف.. أرجوك. الامر مهم لي حقاً. هل.. هل قطعت صلتك بهؤلاء الناس بعد وفاة العم ماتيو؟

ـ قولي ما تعنين قوله. أتريدين أن تعرفي ما إذا كنت الى الآن اتقاضى الرشوة من المجرمين.. تريدين أن تعرفي ما إذا كنت أملأ جيوبي حتى الساعة على حساب المواطنين، الذين اقسمت على تمثيلهم.

فهزت رأسها وهي مطاطئة. فرد عليها:

ـ لا.. أنا لا أقبل الرشوة من أحد. أقسم كايت.

أمسك بخصرها بخفة، وأدارها نحوه، ومسح الدموع التي ترقرقت في مآقيها:

ـ كايت.. يا حلوتي الحبيبة... لماذا لم تخبريني بما شاهدته؟

ـ لأنني كنت خائفة.

ـ خائفة؟ مني؟ أحسبتني سأؤذيك؟

لم يكن هناك مجال للخطأ في الالم الذي في صوته.. فأجابت:

ـ لا.. ليس هكذا... لكنني كنت خائفة مما قد يفعله بي العم ماتيو ومساعدوه.. كان يعمل مع جماعة من المجرمين يا غراي.

ـ ألم تثقي بأني قادر على حمايتك؟

ـ لو علم جماعته بما اكتشفت لما ضمنت سلامتي.

سادت لحظات صمت، وتكلم غراي بهدوء:

ـ هذا ما كان المدعي العام والسكوتلنديارد خائفين منه، ولهذا حرموا عليّ البوح لك بما يجري... جماعة السكوتلنديارد أصروا على أن جهلك بالموضوع أفضل حماية لك.

ـ هل منعوك من البوح لي بما يجري؟ ماذا تعني بالضبط يا غراي؟

ـ أنا لم أتلق يوماً رشوة يا كايت، ولم أساعد المجرمين على الفساد. ما سمعته في المطعم كان جزءاً من خطة.. قبل أربعة أشهر من هجرك إياي، اكتشف العم ماتيو دنو أجله، الذي تزامن مع تقرب جماعة الشركة المتحدة الذين طلبوا منه مساعدتها في تسوية عملياتهم غير القانونية... ولم تكن هذه المرة الأولى التي يُطلب فيها منه العمل على ترتيب رشاوى للرسميين، وأشك في أنه قبل العمل أكثر من مرة. على كل، لم يكن ماتيو بذلك الفساد الاسود الذي أحببت تصويره به. نعم كان يساعد في تنظيف الكثير من الاموال المشكوك في نظافتها، ونعم كان متخصصاً في الدفاع عن المجرمين الاثرياء الذين يعرف هو قبل أي انسان آخر أنهم مذنبون. لكن الواقع كذلك، إن الدستور يضمن حماية الجميع، لا الطيبين من الناس فقط. وماتيو لم يخالف القانون في دفاعه عن اشخاص يعرف أنهم مذنبون.

ـ غراي أرجوك، لا تبتعد عن الموضوع، فهذا مهم. ماذا حدث بعد أن اتصل جماعة الشركة المتحدة به؟

ـ وافق على طلبهم، وقال إن خططهم رائعة، ثم جاء إليّ. اختارني لأنني قريبه، ولأنني كنت رئيس لجنة محاربة الجريمة المنظمة في المجلس.

ـ وماذا فعلت؟

ـ حسناً... كوني على ثقة أنني لم أوافق على أن أُرشى... وفي الواقع أن ماتيو لم يعرض عليّ الرشوة. فآخر شيء كان يريده هو أن يقضي الأشهر الستة الأخيرة من حياته في مساعدة المجرمين.. واقترح أن نبلغ السكوتلنديارد وأن نتعاون مع الوزارة في اطلاق نوع ما من التحقيقات.

رمت كايت نفسها فوق الاريكة تحاول استيعاب المعلومات التي تسمعها من غراي.. وبدأت أحداث كثيرة مرت في ذلك الصيف تتخذ لنفسها وجهة مختلفة... وقالت بذهول:

ـ لا عجب إذن في أن المدعي العام منعني من التحقيق بشأن ماتيو! أتحاول القول إن الدليل الذي اكتشفه المخبرون المحليون كان مدبراً؟

فقال بهدوء:

ـ أجل. هذا بالضبط ما أقوله لك.

ـ وعندما سمعت أنك تقبل بالرشوة كنت متورطاً في تحقيق حكومي رسمي؟

ـ أجل... كل مخطط السكوتلنديارد كان مرتكزاً على أن أبدو أنا ذلك النذل.. فقد ذهب ماتيو الى رئيس الشركة المتحدة ليقول له إنني أعاني عجزاً مالياً وإنني جاهز لاستقبال الرشوة. وفتحت السكوتلنديارد لي حساباً في سويسرا، وبدأت الشركة تدفع تدريجياً دفعات على حسابي وفي هذه الاثناء كنت أنا وماتيو نسير ومعنا أجهزة تنصت، وما سجله ماتيو لمدير

الشركة، كان العمود الفقري للدعوى كلها. فبناء على ما قدمه لهم أحيلت الجماعة الى المحاكمة.

فشهقت كايت:

ـ أوه.. غراي.. كنت تضع حياتك في خطر كلما اقتربت منهم.

ـ ليس حقاً.. فقد كنت التقيهم في أماكن عامة، ولم يكن لديهم سبب ليرتابوا بي. لحسن الحظ، أن المجرمين يجدون عادة من السهل الاعتقاد بأن الناس مثلهم فاسدون. ولم يرتابوا البتة في أنني لست فاسداً. في الواقع كان ماتيو في خطر كبير، لأنه كان يتعامل معهم تقريباً كل يوم. لكنه شرح لي بأنه يريد أن يفعل شيئاً ذا قيمة قبل أن ينضم الى خالقه، لذا لم يكن يهتم بالخطر. وتلك الاسابيع الاخيرة، حين كان يتآكله المرض والالم كان في غاية الشجاعة.

فكرت كايت في السنتين الماضيتين اللتين قضتهما في فرار دائم من غراي. فكرت كيف ولدت ابنتها وهي وحيدة في مستشفى ليڤربول الحكومي. فكرت في الحانات القذرة حيث عملت والشقق القذرة التي سكنت فيها.. وبالليالي التي لا نهاية لها من الوحدة والعذاب حيث كان كل كيانها يصرخ طالباً غراي... فجأة بدأت تضحك. ثم شهقت، واجهشت بالبكاء:

ـ أوه.. لا! أمضيت سنتين ونصف أهرب من بطل لعين! غراي، لقد كنت زوجتك! فلماذا لم تخبرني عن مخططك؟

ـ لا ليس لأن جميع المسؤولين رفضوا ذلك بل لأنني لم أكن أعلم يوماً أن الزوجين إذا لم يتبادلا ما هو مهم في حياتهما، فسينتهي بهما الامر الى أن يفقدا كل ما هو مشترك. وكان عليّ أن أفقدك وسندي قبل أن أتعلم أن الزواج يحمل في

طياته أكثر من ادخال الزوجة الى بيت زوجها ومعاشرتها متى يشاء.

امسكت بيده بشدة:

ـ كلانا ارتكب اخطاء.. وكان لدي الكثير يجب أن اتعلمه.. فلو كنت أثق بك حقاً لما صدّقت ما رأيته. لقد قلت منذ قليل إنني قررت أنك مذنب حتى قبل اطلاعي على الدليل. وأنت محق.. لقد اختل توازن حياتي منذ أن أتيت الى «تشارترفارم» التي فيها كل ما هو يناقض البيئة التي ترعرعت فيها. أحببتك كثيراً، لكنني لم أستطع الوثوق بسعادتي.. كنت كمن يفتش عن مشكلة الصقها بزواجنا.. افتش عن خطأ مميت لأثبت أننا لا نلائم بعضنا بعضاً.

تجعدت لحاظ عينيه من الابتسام:

ـ لكننا نِعْمَ الزوجان، فنحن نلائم بعضنا بعضاً كل الملائمة.

ولفها بين ذراعيه:

ـ أترين؟ رغم كل ما ارتكبنا من أخطاء كثيرة في حق انفسنا، نحن فلقتان لحبة واحدة.. عودي معي الى «تشارترفارم» وكوني زوجتي ثانية يا كايت. واعدك أننا سننجح هذه المرّة.

مررت يديها على ظهره تحس بعضلات ظهره تتصلب تحت ملمس اصابعها. رفعت رأسها نحوه، بطريقة ملؤها الاغواء وتمتمت:

ـ لا أثق إن كان من الحكمة أن أعود معك. اعتقد أن عليك إقناعي أولاً.

قبّل أرنبة أنفها وسأل:

عبدالوفاء سودي

ـ وكيف أفعل هذا؟

ـ بامكانك رشوتي.

تظاهر بالذهول والصدمة:

ـ ماذا؟ أنا؟ أنا أقدم لك رشوة؟

ـ رشوة صغيرة فقط.. عدني مثلاً بأن تعينني مستشارة قانونية لحملتك الانتخابية القادمة.

ـ لك الوظيفة... اتفقنا.

مررت اصابعها على ظهره:

ـ أو... بدلاً عن ذلك...

اغمض عينيه متنهداً:

ـ نعم...

ـ يمكنك حملي الى غرفة النوم.

ففتح عينيه بسرعة، وحملها دون أن ينبث بكلمة، صعد السلم بسرعة ودخل غرفة النوم. وسألها يدّعي البلاهة:

ـ أهناك اقتراح معين لما سنقوم به في الفراش؟

ـ غازلني إن شئت.. أو حولني الى مجنونة عاجزة خاضعة لفعل ما تطلب أو تريد.

رماها فوق الفراش، ثم أرجع خصلة شعر عن وجهها الى الوراء.

ـ يبدو لي هذا أمراً سهلاً، شرط أن تعطيني تعليمات عما سأفعل.

بعد لحظات رفع رأسه نحوها يسأل:

ـ كيف تسير الامور معي؟

فردت بصوت متهدج أجش:

ـ يبدو أنك فهمت الفكرة.

أظلمت الابتسامة عينيه الرماديتين:

ـ أجل.. أظنني بدأت أفهم. أحبك كايت.

ـ وأنا كذلك. أحببتك دائماً.. حتى عندما حاولت بائسة أن أكرهك.

فقال بلهجة آمرة:

ـ قولي هذا ثانية.. فلطالما اشتقت لسماعها من فمك في السنتين والنصف الماضيتين.

ـ أحبك غراي.

كانت تغفو مرهقة بين ذراعيه، حين فتحت عيناً واحدة مجهدة:

ـ يجب أن نشتري لعبة.

ـ أعلم.. اذكر أنها يجب أن تكون دبة ترتدي فستاناً أصفر.. سنشتريها بعد الظهر خلال عودتنا الى المنزل.

فابتسمت ناعسة وعيناها تغمضان:

ـ أحبك يا رجل... كثيراً كثيراً.

* * *

تمت

عبدالوفاء سودي